جامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالقاهرة
قسم الحديث وعلومه

ذبّ المعتدين عن سبّ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم

الدكتور بركات ديب محمد ديب
مدرس الحديث وعلومه
كلية أصول الدين بالقاهرة

المقدمة

إنَّ الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

من رحمة الله تعالى بنا ونعمته علينا أن أرسل إلينا رسولاً هو خاتم الأنبياء وخير الأصفياء، أرسله الله عز وجل على حين فترة من الرسل فأقام به الملة العوجاء، وأوضح به الحجة البيضاء، فأشرقت الأرض بنور ربها، وليس لأحد من البشر من الفضل العظيم، والخير العميم على هذه الأمة بل على العالم كما لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذْ به هدانا الله الصراط المستقيم، ووقانا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، قال الله عز وجل : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة : ١٢٨).

صدق ربنا عزّ وجلّ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزُّ عليه مشقتنا وهو يحرص علينا وعلى تقديم النفع لنا بكل ما أوتيَ، وقد بادل المسلمون رسول الله هذا الحب فأحبّوه بملء قلوبهم وكل جوارحهم، وإن بعض المسلمين تصيبهم حالات من حبّ الرسول صلى الله عليه وسلم تجعله ينسى نفسه، وتنهمر الدموع من عينيه، ومنهم – والله – من يتمنى لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفداه بأهله وماله، بل وبنفسه.

وهذا ما رأيناه وسمعناه من الجموع الغفيرة التي خرجت تنتصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترفع هذا الشعار "إلاّ رسول الله" يعني هذا هو الرمز الذي لا ينبغي أن يعتدي عليه أحد، وهذا هو شمس الشموس وقمر الأقمار الذي لا ينبغي لأحد أن يمسه بسوء أو يتكلم عليه كلمة لا تليق.

والحق أن التطاول على الجناب العظيم قد كثر في هذا العصر – لا كثّره الله – من الكفار ومن المنافقين، حقدًا وحسدًا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى دينه العظيم الذي بعد محاولات التدمير له والإهلاك ما زال صامدًا شامخًا، بل ويدخل الناس فيه كل يوم بل كل ساعة ودقيقة.

وإذا كان الغرب يتطاول على النبي صلى الله عليه وسلم فمن الأمة من يفعل ذلك بخبث ودهاء ويستخدم التعريض بدلاً من التصريح، من أجل ذلك أردت أن أكتب هذا البحث دفاعًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأسأل الله أن يتقبل مني هذا الجهد القليل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد سمّيت هذا البحث :

"ذبّ المعتدين عن سبّ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم".

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري له.

والفصل الأول : تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته، وقد قسمته إلى مبحثين ؛

المبحث الأول : تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه تمهيد وثلاثة مطالب ؛

المطلب الأول : في دلائل عظمته صلى الله عليه وسلم،

المطلب الثاني : تعظيم الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم،

المطلب الثالث : تعظيم المؤمنين لإمام النبيين صلى الله عليه وسلم وعلامات ذلك.

المبحث الثاني وهو بعنوان محبة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه مطلبان،

المطلب الأول : محبة المؤمنين لنبيهم وعلامات هذه المحبة،

المطلب الثاني : وجوب الدفاع عن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني، ويشتمل على مبحث في السب وأنواعه وحكمه، وفيه ثلاثة مطالب،

المطلب الأول : تعريف السب وأنواعه،

المطلب الثاني : حكم السب ونقل الإجماع على كفر الساب ووجوب قتله،

المطلب الثالث : أقوال الفقهاء من أئمة المذاهب الأربعة في كفر الساب وقتله.

الفصل الثالث، ويشتمل على مبحثين ومطلبين،

المبحث الأول : الأدلة من القرآن على كفر الساب ووجوب قتله،

المبحث الثاني : الأدلة من السنة على ذلك أيضًا،

المطلب الأول : حكاية سبّ النبي صلى الله عليه وسلم،

المطلب الثاني : توبة الساب.

وأما الخاتمة فهي تشتمل على بعض التوصيات والمراجع والفهرس.

الفصل الأول

تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته

المبحث الأول

تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم

تمهـــيد

رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي [1] القرشي ينتهي نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو سيد ولد آدم وخيرهم خلقًا وخيرهم فرقة وخيرهم قومًا وخيرهم بيتًا وخيرهم نفسًا، وقد قال واثلة بن الأسقع رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [إنّ الله اصطفى كنانةَ منْ ولد إسماعيلَ، واصطفى قريشًا منْ كِنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم] [2].

إن معدن النبي صلى الله عليه وسلم طيب ونفيس فهو من نسل الذبيح إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وقد أكّد القرآن هذا المعنى فقال ربنا تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [3]. وقوله تعالى {مِنْ أَنْفُسِكُمْ} يعني منكم تعرفون حقيقته وصدقه وأمانته، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما من قبيلة من العرب إلاّ ولدت النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه قال : يا معشر العرب لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل [4]، هذا وقد جاء في قراءة أخرى {مِنْ أَنْفَسِكُمْ}، بفتح الفاء من النفاسة أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم [5].

وقد جمع القاضي عياض بين القراءتين فقال : أعلم الله تعالى المؤمنين أو العرب أو أهل مكة أو جميع الناس أنه

---

(1) قال ابن حزم : من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن هاشميًا فهو كافر. اهـ. انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٢٧/٦) قلت فكيف بمن سبّه سبًّا صريحًا بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم (٥٨/٧) ٢٢٧٦.

(3) سورة التوبة، آية (١٢٨).

(4) ذكره القرطبي في تفسيره (٦١٠/٤) وأبو حيان في البحر المحيط (١١٧/٥).

(5) المرجع السابق، وهذه القراءات ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز (٨٩/٧)، وأبو حيان في البحر المحيط (١١٨/٥).

بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يعرفونه ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته فلا يتهمونه بالكذب لكونه منهم وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلاّ ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قرابة، وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح (أَنْفَسِكُمْ) وهذا نهاية المدح، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة وأثنى عليه بمحامد كثيرة من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم وشدة ما يعنتهم ويضرُّهم في دنياهم وأخراهم، ورأفته ورحمته بمؤمنهم، قال بعضهم: أعطاه الله اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم. اهـ[1].

(1) الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض (١/١٥-١٦).

المطلب الأول
دلائل عظمته صلى الله عليه وسلم

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم إنسان لأن الله عزّ وجلّ قد وهبه من الكمالات البشرية ما لم يهب أحدًا مثله، وهذا الكمال والجمال في خَلْقِه وفي خُلُقه.

كمال الخَلْق

أما كمال الخَلْق فقد كان صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وأجملَ الناس، لم يصفه واصف قط إلاّ شبهه بالقمر ليلة البدر، وقد سئل جابر بن سمرة: أكانَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ قال: لا، بل كان وجهُهُ مثلَ الشمسِ والقمرِ مُسْتَدِيرًا[2]، ورآه جابر بن سمرة في ليلة وعليه حلة حمراء يقول: فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى القمر، فإذا هو عندي أحسن من القمر[3].

(2) أخرجه مسلم، وهذا لفظه في الفضائل، باب شيبه صلى الله عليه وسلم (٧/٨٦) ٢٣٤٤، وأحمد (٥/١٠٤).

(3) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في الرخصة في لبس الحمرة للرجال وقال: سألت البخاري عن حديث البراء وحديث سمرة فرأى

وهذا الجمال جعل القلوب تنجذب إليه وتميل وتسرع إلى طاعته والاقتداء به، فلم ينفر منه معاند ولا استوحش منه مباعد، إلاّ من ساقه الحسد إلى شقوته وقاده الحرمان إلى مخالفته.

ونبينا صلوات الله وسلامه عليه قد ألقى الله عليه سكينةً ووقارًا وهيبةً تدعو النفوس إلى توقيره وتعظيمه، فكان أعظم مهيب في النفوس، حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه، مع اعتيادهم لصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان صلى الله عليه وسلم في نفوسهم أهيب وفي أعينهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأبهة ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتواضع موصوفًا وبالوطاة — أى السهولة — معروفًا[1].

والنبي صلى الله عليه وسلم قمة الجمال والكمال في خَلقه، والمعروف أن الكمال الخَلْقي ليس مكتسبًا وإنما هو ضروري ليس للإنسان فيه اختيار، بل هو محض فضل، فقد وهبه الله جمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصاحة اللسان واعتدال الحركات وشرف النسب — وقد تكلمت عنه سابقًا — وكل هذه الفضائل والكمالات، كانت لها أكبر الأثر في دعوته واستجابة الناس له، فكم من رجل دخل في الإسلام بمجرد رؤيته رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاهدة وجهه الشريف، فهذا عبد الله بن سلام حبر اليهود وأعلمهم بالتوراة يقول:

لما قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ انجفلَ الناسُ إليه، وقيل: قَدِمَ رسولُ الله ثلاث مرات — فجئتُ في الناس لأنظرَ إليه، فلمّا تأملتُ وجهَهُ واستبنتُهُ عَرفتُ أنَّ وجهَهُ ليس بوجه كذّاب[2].

كلا الحديثين صحيحًا (٥/١٠٩) ٢٨١١، والنسائي في الكبرى (تحفة الأشراف) ٢٢٠٨، والدارمي في المقدمة، باب في حسن النبي صلى الله عليه وسلم (١/٣٠) ٥٨.

(1) نظرة النعيم (١/٤٣٩).

(2) قوله: انجفل يعني أسرع، وقوله: استبنتُهُ يعني تحققت منه وتبينته، هذا والحديث أخرجه أحمد (٥/٤٥١) وعبد بن حميد حديث رقم ٤٩٦، والدارمي في الصلاة باب فضل صلاة الليل (١/٣٤٠) ١٤٦٨، والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب رقم ٤٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح (٤/٥٦٢) حديث رقم ٢٤٨٥، وأخرجه ابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام الليل (١/٤٢٣) حديث رقم ١٣٣٤.

كمال الخلق

وأما كمال خُلقه صلى الله عليه وسلم فحدث عنه ولا حرج، ولو أني أرى أنّ كل قلم يعجز عن وصف خلق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنّ كل تصور لا يرقى إلى هذا المستوى الخلقي، ولا يستطيع أحد أن يصف خلق النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ ربه سبحانه وتعالى عندما قال له : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

إنها شهادة من الله العلي الكبير لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم البشير النذير، وكفى بها شهادة، قال الرازي : إن الله وصف ما يرجع إلى قوة النبي صلى الله عليه وسلم النظرية بأنه عظيم، فقال تعالى : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[2].

ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال : {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}.

فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه صلى الله عليه وسلم فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة.اهـ[3].

وقال الجنيد : سمى خلقه عظيمًا لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى، وقيل سمى خلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه[4].

وقال العز بن عبد السلام في قوله تعالى : {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} قال : واستعظام العظماء للشيء يدل على إيغاله في العظمة فما الظن باستعظام أعظم العظماء.اهـ[5].

قلت : قد اجتمع في النبي صلى الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق ما لم يجتمع في بشر، فكان عنده صلى الله عليه وسلم من رجاحة العقل وصدق الفراسة وصحة الرأي وصواب التدبير الشيء الكثير الوفير، وقد عُرف صلى الله عليه وسلم بثباته في الشدائد وصبره على البأساء والضراء، فهو لا يخور في شديدة ولا يستكين لعظيمة، وقد لقي في مكة من قريش ما يشيب النواصي ويهدُّ الصياصي، وهو رابط الجأش ومطمئن

---

(1) سورة القلم، آية (٤).

(2) سورة النساء، آية (١١٣).

(3) مفاتيح الغيب (٦٥١/١٥).

(4) تفسير القرطبي (٩/٤٤٥).

(5) بداية السول (ص٥٨).

القلب ثابت الفؤاد، وهو مع ذلك صلى الله عليه وسلم قد اشتُهر بالحلم والأناة، فقد كان أحلم في النفار من كل حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم لما قدر عليهم عفا وغفر، وقد روي أنه قال لقريش يوم الفتح ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال : فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء![1].

إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أحرز جانب الخلق الإنساني الكريم فما من صفة كريمة إلاّ واتصف بها، وما من خصلة عظيمة إلاّ وتمسك بها يعزف عن الدنيا ويعرض، وقد كانت بين يديه ومع ذلك فهو أزهد الناس فيها.

وهذه زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : ما شَبِعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أيامٍ تباعًا من خُبزِ بُرٍ حتى مضى لسبيله[2]، وفي رواية أخرى قالت : ما شَبِعَ آلُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم منذُ قَدِمَ المدينةَ من طعامِ بُرٍ ثلاثَ ليالٍ تباعًا حتى قُبِضَ[3].

هذا عن طعامه صلى الله عليه وسلم.

أما عن فراشه فقد قالت عائشة رضي الله عنها : [كان فراشُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من أَدَمٍ وحَشْوُه لِيفٌ][4]. والأدم بالفتح هو الجلد.

---

(1) الآية هي رقم (٩٢) من سورة يوسف، والحديث رواه ابن إسحاق كما ذكره عنه ابن هشام (تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٣٦). وقد قال ابن إسحاق فحدثنا بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب الكعبة...الخ، الحديث وهو بهذا يكون حديثا معضلاً قد حصل له انقطاع من أكثر من راوى على التوالي، وقد ذكره الغزالي في الإحياء (٢٣٧/٣) من حديث أبي هريرة، وحديث سهيل بن عمرو وعلق عليه الحافظ العراقي فقال : حديث أبي هريرة رواه ابن الجوزي في الوفا من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف، وحديث سهيل بن عمرو : لم أجده.

(2) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢١٧/٨) ٢٩٧٠.

(3) أخرجه البخاري في الرقاق باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم عن الدنيا برقم (٦٤٥٤)، ومسلم في الموضع السابق برقم (٢٩٦٩).

(4) أخرجه البخاري في الرقاق باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (٢٨٢/١١) ٦٤٥٦، وأخرجه مسلم في اللباس والزينة باب التواضع في اللباس والاقتصار على الغليظ منه (١٤٥/٦) ٢٠٨٢، وأبو داود في اللباس باب في الفرش (٧١/٤) ٤١٤٦، والترمذي في اللباس، باب ما جاء في

وكما يظهر لك أيها القرئ الكريم هذه هي دنيا النبي صلى الله عليه وسلم هو أزهد الناس فيها، والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل إنسان بكل هذا الزهد يكذب على الله أو يدعى باطلاً وزورًا حاشاه صلى الله عليه وسلم وقد يقول قائل : إذا لم يستمتع هو بزهرة الدنيا فربما يفعل ذلك من أجل أبناءه وذريته، والجواب : إنه صلى الله عليه وسلم أزهد الناس فيما يُقتني ويُدخر وأعرضهم عما يُستفاد ويُحتكر، لم يخلّف عينًا ولا دينارًا ولا حفر نهرًا ولا شيد قصرًا ولم يورّث ولده وأهله متاعًا ولا مالاً، وقرر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة فقال : [لا نُورَث ما تَرَكْنا صدقةٌ](١)، وكذلك من كمال خلقه صلى الله عليه وسلم حفظه للعهد ووفاؤه بالوعد فإنه صلى الله عليه وسلم ما نقض عهدًا ولا أخلف وعدًا.

وبعد : فأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلقية مما تدل على عظمته أكثر من ذلك بكثير، وما ذكرته إنما هو نقطة في بحر أو حلقة في فلاة، ولقد أفاض المحدثون في تحقيق أوصافه صلى الله عليه وسلم بأكثر من ذلك ونقلوا من كريم أوصافه وعظيم شمائله في كل باب من محاسن الأخلاق مما لا يتسع هذا الموضع لبسطه.

وبالجملة فآية أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه آية كبرى وعلم من أعلام نبوته العظمى ويشهد لذلك الأعداء الحاسدون كما يشهد له المؤمنون الصادقون، ولذلك فإنّ عالم الفلك الأمريكي عندما تحدث عن العظماء في تاريخ الإنسانية(٢) فوجد درة تاج الكمال الإنساني متمثلة في النبي محمد صلى الله عليه وسلم فجعله القمة الأولى في تاريخ البشرية، لأنه استطاع أن يبني أمة صارت في فترة وجيزة هي الأمة الأولى في العالم، ولا يقدر على ذلك إلاّ عظيم بل هو أعظم رجل في العالم، وهذه شهادة من الأعداء والخصوم الذين لم

فراش النبي صلى الله عليه وسلم وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح (٢٠٨/٤) ١٧٦١.

(١) الحديث أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه بأرقام ٤٠٣٤، ٤٢٤٠، ٤٢٤١، ٦٧٢٥، ٦٧٢٦، ٦٧٣٠، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير باب قول النبي صلى الله عليه وسلم [لا نورث] (١٥٣/٥ وما بعدها) حديث رقم ١٧٥٨، ١٧٥٩.

(٢) هو ميكل هارت عالم فلكي رياضي يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية، وكتابه بعنوان (المائة تقويم لأعظم الناس أثرًا في التاريخ

يجدوا في النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ كل صفة جميلة وإلاّ كل خلق حسن عظيم.

شهد الأنام بفضله حتى العدا *** والفضل ما شهدت به الأعداء

المطلب الثاني

تعظيم الله جلّ وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم

لقد أكرم الله تبارك وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وعظمه في القرآن الكريم، وذلك في أمور :

الأول : أقسم بحياته

وهذا شرف عظيم أن يقسم الله العلي الكبير بحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولم يقسم بحياة بشر غيره فقال سبحانه وتعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١). قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى :

(١) سورة الحجر، آية (٧٢)، والعَمْر والعُمْر (بفتح العين وضمها) لغتان مشهورتان معناهما واحد إلاّ أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم. قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر الفرق بين العمر والعمر كما أثبته آنفا قال : وأيضًا فإن العمر حياة مخصوصة فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم ولا ريب أن عمره وحياته صلى الله عليه وسلم من أعظم النعم والآيات. اهـ من التبيان في أقسام القرآن (ص٣٦١).

{لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون}، يقول : وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا[١].

قال القاضي أبو بكر بن العربي : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله عزوجل تعالى هاهنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفًا له[٢].

وكذلك قال القاضي عياض : اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم[٣].

وقد يطرح أحدهم هاهنا سؤالاً وهو : ما الفضل والتشريف في هذا القسم وقد أقسم الله عز وجل بالشمس والقمر والتين والزيتون؟

والجواب هو : إن الله عز وجل يقسم بما شاء وقتما شاء وكيفما شاء، وما من شيء أقسم الله به إلاّ دل ذلك على فضله ومكانته على جنسه فكذلك القسم بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم دلالة على تفضيله وتشريفه على بني جنسه كلهم.

الثاني : أخذ الميثاق على جميع الأنبياء على الإيمان به ونصرته.

قال الله جلّ جلاله وعزّ سلطانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٤].

وقد نقل ابن كثير عن علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهم : ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، ثم ذكر ابن كثير رحمه الله قول من قال إن الله أخذ الميثاق على النبيين أن يصدق بعضهم بعضًا فقال ابن كثير : وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه[٥].

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٩٩/٥)، وأثر ابن عباس أخرجه ابن جرير (٥٢٦/٧)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم كما ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور (١٩٢/٤).

(٢) أحكام القرآن (١١٣٠/٣)، وانظر : السيف المسلول لتقي الدين السبكي (ص٣٥٥).

(٣) الشفا (١٥/١-١٦).

(٤) سورة آل عمران، آية (٨١).

(٥) تفسير ابن كثير (٥٦٥/١).

الثالث : نداؤه بوصف النبوة والرسالة

الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم والنبي الأكرم المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع عند ربه في المحشر لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلاّ له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الرسل حتى تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ما تقدم أن الله عز وجل خاطب رسوله في القرآن بالنبوة والرسالة، ولم يناده باسمه المجرد وذلك زيادة في التشريف والتكريم، بخلاف سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فخوطبوا بأسمائهم قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[١]، وقال عز من قائل : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[٢]، وقال جل جلاله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[٣]، وقال ربنا جل وعلا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[٤].

وهكذا نرى نداء الرحمن لرسوله المصطفى العدنان صلى الله عليه وسلم نداءً بالنبوة والرسالة، أما بقية الأنبياء فقد قال الله تعالى لهم : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[٥]، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾[٦]، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[٧]، ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[٨]، ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾[٩]، وهكذا نرى أن الأنبياء يدعوهم ربهم ويناديهم بأسمائهم، أما رسوله محمد صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء وسلم تسليمًا كثيرًا، فلم يَدْعُهُ إلاّ بـ (يا أيها النبي، ويا أيها الرسول) وهي أوصاف

---

(١) سورة المائدة، آية (٤١).

(٢) سورة المائدة، آية (٦٧).

(٣) سورة الأحزاب، آيتان (٤٥-٤٦).

(٤) سورة التحريم، آية (١).

(٥) سورة البقرة، آية (٣٥).

(٦) سورة هود، آية (٤٨).

(٧) سورة هود، آية (٧٦).

(٨) سورة الأعراف، آية (١٤٤).

(٩) سورة المائدة، آية (١١٠).

علية تدل على مكانة المنادي بها ومنزلة المدعو بها صلى الله عليه وسلم. وهاهنا لطيفة ذكرها ابن الجوزي[1] رحمه الله فقال : ولما ذكر اسمه للتعريف قرنه بذكر الرسالة فقال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[2].

وقال تعالى أيضًا : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[3]، وقال جل وعلا : ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾[4]، ولما ذكره مع الخليل ذكر الخليل باسمه وذكره باللقب فقال تعالى : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾[5].

---

(1) الوفا في أحوال المصطفى لابن الجوزي (ص٣٦٣)، وانظر : بداية السول للعزبن عبد السلام (ص٣٨).
(2) سورة آل عمران، آية (١٤٤).
(3) سورة الفتح، آية (٢٩).
(4) سورة محمد، آية (٢).
(5) سورة آل عمران، آية (٦٨).

المطلب الثالث

تعظيم المؤمنين لإمام النبيين صلى الله عليه وسلم

تمهيد

ظهر مما تقدم عظمة النبي صلى الله عليه وسلم في نسبه وخَلقه وخُلقه وكيف بلغ بصفاته مبلغ الكمال الإنساني، ثم زاده ربه تشريفًا وتكريمًا، فعظمه وفخمه وحيّاه وأكرمه، فهو الإنسان الذي تسع نفسه ما بين الأرض وسمائها وتجمع الإنسانية بمعانيها وأسمائها فهو في صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك، وفي صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك، وما خص بتلك الصفات إلاّ ليملأ بها الكون ويعمّه، ولا كان فردًا في أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة[6].

فمن كانت هذه صفاته وشمائله وأخلاقه فحرى بالمؤمنين أن يعظموه ويجلّوه، سيما وقد أمرهم الله بذلك فقال تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

---

(6) انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٢٢٧).

وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1].

وقوله تعالى : {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} أى تعزّروا الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوقّروه أى تعظّموه وتجلّوه وتقوموا بحقوقه، لأنه صاحب الفضل عليكم والمنة بعد الله عز وجل.

قال ابن كثير رحمه الله : قال ابن عباس وغير واحد : {تعزّروه} تعظّموه {توقّروه} من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام {وتسبّحوه} أى تسبحون الله {بكرة وأصيلا} أى أول النهار وآخره ثم قال عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[2]، كقوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[3].

قال ابن تيمية رحمه الله : إن الله فرض علينا تعزيره وتوقيره، وتعزيره : نصره ومنعه، وتوقيره : إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق، بل ذلك أول درجات التعزير والتوقير،

---

(1) سورة الفتح، آيتان (٨-٩).
(2) سورة الفتح، آية (١٠).
(3) انظر : تفسير ابن كثير (٤/٢٨٤)، والآية رقم (٨٠) من سورة النساء.

ومن أعظم النصر حماية عرضه ممن يؤذيه[4]، وكان أصحابه رضوان الله عليهم يعظموه ويجلوه، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : لقد رأيتُني وما أحدٌ أشدَّ بُغضًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منِّي، فلمّا أسلَمَ قال : وما كان أحدٌ أحبَّ إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجلّ في عيْنيّ منهُ وما كنتُ أُطيقُ أن أملأَ عيْنيّ منه إجلالاً له، ولو سُئلتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ لأنّي لم أكن أملأُ عينيّ منه ... الحديث[5].

وقال عروة بن مسعود الثقفي وكان يفاوض النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية فرأى ما يصنع الصحابة بنبيهم من التعظيم والتبجيل فلا يتوضأ صلى الله عليه وسلم إلاّ ابتدروا وضوءه ولا يبصقُ بُصاقًا إلاّ ابتدروه، ولا يَسقطُ من شعرِه شيءٌ إلاّ أخذوه فرجَعَ إلى قريش فقال : يا معشرَ قريشٍ إنّي قد جئتُ كسرى في مُلكِه وقيصرَ في

---

(4) انظر : الصارم المسلول لابن تيمية (ص٢١٧).
(5) هذا مقطع من حديث طويل في وفاة عمرو بن العاص رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج (١/٧٨) ١٩٢، وأحمد (٤/١٩٩، ٢٠٥)، وابن خزيمة برقم (٢٥١٥).

مُلكه والنجاشيَّ في مُلكه، وإنّي والله ما رأيتُ مَلكًا قط مثلَ محمد في أصحابه ولقد رأيتُ قومًا لا يُسلِمُونه لشيءٍ أبدًا[1].

ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس في هذا المعنى، يقول: ألقى الله على النبي صلى الله عليه وسلم هيبة منه ومحبة، فكان كل من يراه يهابه ويجله ويملأ قلبه تعظيمًا وإجلالاً وإن كان عدوًا له، فإذا خالطه وعاشره كان أحب إليه من كل مخلوق، فهو المجل المعظم المحبوب المكرم، وهذ غاية كمال المحبة أن تقرن بالتعظيم والهيبة، فالمحبة بلا تعظيم ولا هيبة ناقصة، والهيبة والتعظيم من غير محبة كما يكون للظالم القادر نقص أيضًا، والكمال أن تجتمع المحبة والود والتعظيم والإجلال، وهذا لا يوجد إلاّ إذا كان في المحبوب صفات الكمال التي يستحق أن يُعظم لأجلها ويُحب لأجلها[2].

من تعظيم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عدم مناداته باسمه

من تعظيم المؤمنين لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل نهاهم أن ينادوه باسمه، بل أوجب الله عليهم أن يخاطبوه بـ يا رسوله الله، و يا نبي الله وهكذا. وهذا الخلق الرفيع مع صاحب الخلق العظيم إنما هو من باب التخلق بأخلاق الله جل وعلا، فقد تقدم أن الله عز وجل ينادي حبيبه محمدًا صلى الله عليه وسلم ويخاطبه بالنبوة والرسالة، وأمر المؤمنين بذلك فقال تبارك وتعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾[3] ففي هذه الآية ينهى الله عز وجل غن دعاء الرسول وندائه بما ينادي به الناس بعضهم لبعض بل من تعظيمه وتفضيله وتشريفه صلى الله عليه وسلم أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله، قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظامًا لنبيه صلى الله عليه وسلم، قال: فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيه صلى الله عليه

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٤٦/٤)، وكلام عروة بن مسعود رواه ابن إسحاق عن الزهري وأصله في البخاري كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٣٢٩/٥)، ٢٧٣١.

(٢) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم (ص١٠٢).

(٣) سورة النور، آية (٦٣).

وسلم وأن يبجل وأن يعظم وأن يُسوَّد[1].

هكذا يربي القرآن المسلمين ويعلمهم كيفية تعظيم نبيهم صلى الله عليه وسلم،

وإذا أنعمنا النظر في القرآن، وجدنا نبينا صلى الله عليه وسلم ينفرد بتلك الخصوصية كما خصه ربه بندائه بالنبوة والرسالة، ولم يناده باسمه المجرد على خلاف ندائه على بقية الأنبياء، وكذلك هنا يقرر القرآن أنه لا يناديه المؤمنون باسمه بل بـ يا أيها النبي، ويا أيها الرسول على خلاف نداء السابقين لأنبيائهم، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾[2]، ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[3]، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات، فإذا قال قائل هؤلاء من الكفار وليسوا من أتباع الأنبياء، قلنا لهم: بل وكذلك أتباع الأنبياء فهؤلاء قوم موسى وأتباعه يقولون له كما حكى القرآن الكريم عنهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾[5]، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[6]، وهؤلاء أصحاب عيسى عليه السلام يسجل القرآن ندائهم ودعاءهم له فيقول عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[7].

وبعد: فهذا غيض من فيض، ولو تتبعنا عظمة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيم الله سبحانه وتعالى له، وأمره المؤمنين بتعظيمه لطال جدًا واحتاج إلى مجلدات، ولكن هذه الورقات لمع وإشارات يكتفي العاقل الفطن بمثلها بل ببعضها.

وأختم هذا المطلب بكلام يكتب بماء الذهب لسلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله في شرح حديث النبي صلى الله عليه وسلم القائل فيه: [أنا سيدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخر][8]، قال:

(١) تفسير ابن كثير (٤٩٠/٣).

(٢) سورة هود، آية (٣٢).

(٣) سورة هود، آية (٥٣).

(٤) سورة هود، آية (٦٢).

(٥) سورة الأعراف، آية (١٣٤).

(٦) سورة الأعراف، آية (١٣٨).

(٧) سورة المائدة، آية (١١٢).

(٨) الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أبو هريرة أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٠/١)

والسيد من اتصف بالصفات العلية والأخلاق السنية، وهذا مشعر بأنه أفضل منهم في الدارين، أما في الدنيا فلما اتصف به من الأخلاق العظيمة، وأما في الآخرة فلأن الجزاء مرتب على الأخلاق والأوصاف، فإذا فضلهم في الدنيا في المناقب والصفات فضلهم في الآخرة في المراتب والدرجات، وإنما قال صلى الله عليه وسلم : [أنا سيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْر]، لتعرف أمته منزلته من ربه عز وجل، ولما كان ذكر مناقب النفس إنما تذكر افتخارًا في الغالب أراد صلى الله عليه وسلم أن يقطع وهم من توهم من الجهلة أنه يذكر ذلك افتخارًا فقال :[ولا فخر][1] .اهـ كلامه رحمه الله.

بإسنادين الثاني على شرط مسلم، ورواه أنس بألفاظ مختلفة أخرجه أحمد (١٤٤/٣)، والدارمي في مقدمة سننه باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم من الفضل (٢٧/١) ٥٥، وإسناده صحيح رجاله رجال الصحيحين، ورواه عبد الله بن سلام أخرجه ابن حبان في صحيحه وإسناده صحيح، موارد الظمآن برقم (٢١٢٧).

(١) بداية السول في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم (ص٣٣-٣٤).

المبحث الثاني
محبة النبي صلى الله عليه وسلم

المطلب الأول

محبة المؤمنين لسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم

المؤمنون أكثر الناس تعظيمًا وتوقيرًا للنبي صلى الله عليه وسلم وقد سبق ذكر ذلك وفيه – إن شاء الله – ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وهذا التعظيم والتكريم من المؤمنين لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، هو تعظيم بحب وتوقير بوُدّ، ولابد لهذا التعظيم من المحبة، لأنَّ التعظيم بلا محبة نقص ولا يكون إلاَّ للظالم، وكذلك المحبة بلا هيبة ولا توقير ناقصة، والكمال أن تجتمع المحبة مع التعظيم وأن يجتمع الود مع الإجلال والهيبة، ولهذا كان لابد من ذكر شيء يسير من محبة المؤمنين لنبيهم صلى الله عليه وسلم هذه المحبة التي جعلها الله علامة على الإيمان وسببًا في الإسلام ولو انتفت المحبة لانتفى الإيمان.

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمّر

السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام[1].

قلت : رحم الله ابن القيم فقد صدق وأصاب فإن المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم فرض لازم ودليل الإيمان وحجة الإسلام، ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناسِ أجمعين][2]، وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [فوالذي نفسي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده][3]، ففي هذين الحديثين نفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عن العبد حتى يقدم حبه صلى الله عليه وسلم على حب كل الناس حتى الوالد والولد، بل وأكثر من ذلك أن يقدم المؤمن حب النبي صلى الله عليه وسلم على حبه لنفسه، كما ثبت في البخاري أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : يا رسولَ الله لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلاَّ من نَفْسي، فقال : [والَّذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ مِنْ نفسك، فقال له عمر : فإنه الآنَ والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نَفْسي، فقالَ النبيّ صلى الله عليه وسلم : الآنَ يا عمرُ!][4].

ومما يدلّ على هذا المعنى، وأنه يجب تقديم محبة الله ورسوله على كل محبة، قول الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان (٧٥/١)، فتح برقم (١٥)، ومسلم في الإيمان باب وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم (٤٨/١) ٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق برقم (١٤).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم (٥٣٢/١١) فتح برقم (٦٦٣٢).

وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

قال القاضي عياض – رحمه الله – : فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم إذ قرّع تعالى من ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله[2].

قلت : تجدر الإشارة هنا إلى أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم تابعة لمحبة الله تبارك وتعالى فليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلاّ الله تعالى، وكل ما يُحب سواه فمحبته تبع لمحبته فإن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله، وقد جعل الله تعالى علامة محبته سبحانه اتباعَ نبيه صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[3].

دلائل وعلامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم

علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة، أذكر أهمها وأبدأ بما يهم المؤمنين في هذا العصر وفي كل عصر :

أولاً : تمني رؤية النبي صلى الله عليه وسلم والشوق إلى لقائه، ولو بذل المؤمن في ذلك ماله وولده، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا ناسٌ يكونون بَعْدي يودُّ أحدُهم لو رَآني بأَهْلِه ومالِه][4]، ونحن نشهد الله تعالى أننا نودّ أن نرى النبي صلى الله عليه وسلم بأهلنا ومالنا ونسأل الله عز وجل أن يحشرنا تحت لوائه وأن يرزقنا صحبته في الجنة، اللهم آمين...

ثانيًا : من اشتاق إلى إنسان أكثر من ذِكْرِه، ومن ذِكْرِه صلى عليه صلى

(1) سورة التوبة، آية (٢٤).

(2) الشفا للقاضي عياض (٢/٥٦٣).

(3) سورة آل عمران، آيتان (٣١-٣٢).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فيمن يود رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بأهله وماله (٨/١٤٥) ٢٨٣٢.

الله عليه وسلم الصلاة عليه، قال ابن القيم : لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له وتزايد شوقه إليه واستولى على جميع قلبه[1]. فمن شوقنا لحبيبنا ذكرناه وإذا ذكرناه صلينا عليه امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[2]، اللَّهُمَّ صلِّ على نبينا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [من صلّى عليّ صلاة صلى اللهُ عليه بها عشرًا][3].

ثالثًا : من علامات محبته صلى الله عليه وسلم اتباعه وطاعته في كل ما أمر به أو نهى عنه، وهذا الدليل على المحبة من أصدق الأدلة لأنه دليل عملي، فربما كانت الأدلة الأخرى عن الشوق والذكر والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مزعومة، أما هذا فهو دليل الصدق وعلامة الحب، وهو الاختبار الذي اختبر الله به عباده حيث قال عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[4]. قال أبو سليمان الداراني : لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة (أي اختبارًا) وهي قوله سبحانه فذكر الآية، وقوله سبحانه وتعالى : {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، فدليلها اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وثمرتها محبة المرسِلِ لكم وهو الله عز وجل، فإذا لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية[5].

(1) جلاء الأفهام لابن القيم (ص٢٦٥).

(2) سورة الأحزاب، آية (٥٦).

(3) أخرجه مسلم في الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن (٢/٤) ٣٨٤.

(4) سورة آل عمران، آيتان (٣١-٣٢).

(5) انظر : نضرة النعيم (٨/٣٣٢٩).

المطلب الثاني
وجوب الدفاع عن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب المقام العالي، وهو الحبيب الغالي سيد الخلق وحبيب الحق، والقيام بحقه واجب دفاعًا عن مقام النبوة وعظيم منزلتها، وحماية عرضه الشريف صلى الله عليه وسلم متعينة لا يتهاون فيها مسلم، ونصرته وحمايته عما يؤذيه حيًّا وميتًا واجبٌ على كل مؤمن، لأن الله قد أوجب على كل مسلم تعظيم النبي وتوقيره وتعزيره، وذلك يوجب الدفاع عن حرمته وصون عرضه بكل طريق، ولله در حسان بن ثابت لما قام منتفضًا يرد عن عرض رسول اللـــــه صلى الله عليه وسلم ويدافع عن حرمته فقال:

هجوتَ محمدًا وأجبتُ عنه *** وعند الله في ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ *** فشرُّكما لخيرِكُما الفداءُ

هجوتَ مباركًا برًّا حنيفًا *** أمينَ الله شيمتُه الوفاءُ

أمَنْ يهجو رسول الله منكم *** ويمدحُهُ وينصرُه سواءُ

فإنَّ أبي ووالده وعرْضي *** له لعِرْض محمد منكم وقاءُ[1].

وقد أفتى الإمام مالك فتوى ينبغي على المسلمين في هذه الأيام أن يتدبروها وهي في رجل لم يسبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشتمه بل ضرب به المثل عندما عيره رجل بالفقر فقال: تعيرني بالفقر وقد رعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنم؟ فقال الإمام مالك: قد عرَّض بذكر النبي صلى الله عليه وسلم في غير موضعه، أرى أن يؤدب، وقال: لا ينبغي لأهل الذنوب إذا عوتبوا أن يقولوا: قد أخطأت الأنبياء قبلنا[2].

وقد ضُرب عُنق كمال الأحدب لأنه قال لخصم له: تكذب ولو كنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم!! فحبسه القاضي جمال الدين المالكي وحكم بقتله[3].

---

(١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام (ص٢٤٠).

(٢) تزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء للسيوطي (ص٩)، وانظر أيضًا: الشفا بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض (١٤٨/٢-١٥١).

(٣) شذرات الذهب (٩/٦)، وفيات ٧٠٤هـ، وانظر: المناهي اللفظية (ص٤٨٠).

إنني هنا أوجه رسالة إلى كثير من الذين ينتسبون إلى الأمة المحمدية، والذين يزعمون الثقافة من الكُتَّاب والصحفيين وغيرهم الذين لا يتأدبون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل يتكلمون عنه وعن شريعته بلا مبالاة وكأنهم يتكلمون عن إنسان زميل لهم أو صديق، لا يا أمة محمد! ليس هذا هو توقير النبي صلى الله عليه وسلم ولا تعظيمه بل من توقيره وتعظيمه ما روي عن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - عندما قال لرجل: انظر لنا كاتبًا يكون أبوه عربيًّا، فقال كاتب له: قد كان أبو الرسول كافرًا، فقال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه -: جعلت هذا مثلاً؟ فعزله، وقال: لا تكتب لي أبدًا!

وقد كره سحنون أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم عند التعجب إلاَّ على طريق الثواب والاحتساب توقيرًا له وتعظيمًا كما أمرنا الله سبحانه وتعالى[1].

إنني عندما أقرأ تلك الدرر في الدفاع عن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم أصرخ في وجه العابثين اللاهين الذين لا يعرفون للنبي صلى الله عليه وسلم حرمة ولا يقدِّرونه حقَّ قدره، أين أنتم من حرمة النبي صلى الله عليه وسلم واحترامه؟ وأين نخوتكم ومروئتكم وغضبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إنَّ يحيى بن سعيد ذلك الإمام العالم لما قيل له: أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماؤك عند الله؟ فقال: لأن يكونوا خصماء لي أحب إليَّ من أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم خصمي، يقول لي: لِمَ لَمْ تذب الكذب عن حديثي[2].

إن الدفاع عن حرمة المسلمين واجب على كل مسلم لأن حرمة المسلمين عظيمة وجليلة، وقد ثبت في الصحيحين [أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سأل وهو في غزوة تبوكٍ عن كعب بن مالك فقال رجل: شغَلَه بُرْدَاهُ والنظرُ في عطْفَيْه، فقال معاذ بن جبل -

---

(١) تزيه الأنبياء، وانظر السيف المسلول لتقي الدين السبكي (ص٣٢٥) وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٩٣/٥٤).

رضي الله عنه – : لا تقلْ هذا، فو اللهِ يا رسولَ الله ما عَلمْنا عنهُ إلاّ خَيْرًا فسكتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم][1] وسكوته صلوات الله وسلامه عليه إقرار على ذلك وإقراره سنة، والأدلة كثيرة جدًا في الدفاع عن حرمات المسلمين ورد غيبتهم فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لا شكّ أن الدفاع عن حرمته أعظم وأكبر ولله در خُبَيْبِ بن عَدي عندما أسرته قريش وأرادوا قتله فقال له أبو سفيان : أمَا تحبُّ أن تكونَ في أهلِكَ ومحمدٌ هنا مكانَكَ فتضربُ عنقُه، فيقول – رضي الله عنه – : [واللهِ ما أحبُّ أن يكونَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مكانه الذي هو فيه فيصيبُهُ أذى شوكة][2]، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ لكعْبِ بن الأشرف فإنه قد آذى اللهَ ورسولَه؟ فقامَ محمدُ بنُ مسلمةَ فقال : أنا يا رسولَ اللهِ، أتحبُّ أن أقتلَه؟ قال : نعم[3].

ورحم الله سعد بن معاذ – رضي الله عنه – عندما سارع في الدفاع عن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: [من يَعْذُرُني في رجلٍ بلَغَني أذاهُ في أهْلي؟ فقالَ سعدُ بنُ معاذ : أنا أعذرُكَ، إنْ كانَ من الأوْسِ ضربتُ عُنقَه، وإنْ كانَ من إخوانِنَا من الخزْرَجِ أمَرْتَنا فَفعلْنا أمرَكَ][4]. وقوله صلى الله عليه وسلم : من يعذرني يعني من ينصفني ويقيم عذري إذا انتصفت منه فقام سعد بن معاذ – رضي الله عنه – فقال ما قال فاقره النبي صلى الله عليه وسلم على قوله ولم ينكره عليه وسيأتي في الأدلة هذا الحديث بطوله إن شاء الله تعالى.

---

(1) جزء من حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، أخرجه البخاري في المغازي باب حديث كعب بن مالك وهو الباب الذي يلي باب غزوة تبوك (١١٣/٨) ٤٤١٨، وأخرجه مسلم في التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (١٠٥/٨) ٢٧٦٩.

(2) أخرجه أحمد (٢٩٤/٢، ٣١١)، والبخاري في الجهاد باب هل يستأسر الرجل؟ ومن لم يستأسر (١٦٥/٦) ٣٠٤٥، وفي المغازي في الباب الذي بعد بدر وهو رقم (١٠) حديث رقم ٣٩٨٤، وفي باب غزوة الرجيع (٣٧٨/٧) حديث رقم ٤٠٨٦.

(3) سيأتي حديث كعب بن الأشرف بتمامه وذكر مباحثه وتخريجه.

(4) أخرجه البخاري في التفسير باب {لَوْ لاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...} ٤٧٥٠، ومسلم في التوبة باب في حديث الإفك (١١٣/٨) ٢٧٧٠.

الحقوق المتعلقة بسبة الرسول صلى الله عليه وسلم

الدفاع عن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم هو حقّ المؤمنين، لأنّ الساب والشاتم للنبي صلى الله عليه وسلم قد اعتدى على حق الله عز وجل وعلى حق المؤمنين، أما حق الله سبحانه وتعالى فإن الشاتم والساب (قاتله الله) قد كفر برسول الله الذي أرسله الله وعادى أفضل أولياء الله وبارزه بالمحاربة، ثم إن الساب أيضًا يطعن في دين الله وفي كتاب الله لأن الدين إنما جاء عن طريق هذا الرسول صلى الله عليه وسلم والكتاب إنما نزل عليه، أما حق المؤمنين فإن السبب في قيام أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاءهم بالخير العظيم والنفع العميم في الدنيا والآخرة، فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور وأحياهم بعد موات، فلا شك أن سبه صلى الله عليه وسلم أعظم عندهم من سب أنفسهم وآبائهم وأبنائهم كما أنه أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم والناس أجمعين.

الفصل الثاني
السبّ والشتم
المطلب الأول
تعريف السبّ وأنواعه
تعريف السبّ

قال ابن منظور في لسان العرب : السب : الشتم وهو مصدر سبّه يسبّه سبًّا أى شتمه، وأصله من ذلك وفي الحديث : [سِبَابُ المسلمِ فُسُوقٌ وَقتالُه كُفرٌ][1]، والسُبّة : العار، ويقال : صار هذا الأمر سُبّة عليهم بالضم أى عارًا يُسب به، والتساب : التشاتم، وتسابوا : تشاتموا... والشتم : قبيح الكلام وليس فيه قذف، والشتم هو السب، شتمه يشتُمُه ويشتِمُه شتمًا فهو مشتوم، والأنثى مشتومة[2].اهـ، وبالنظر في تعريف السب لغة نجده بمعنى الشتم وكذلك معنى الشتم السب، ولذلك فمثل هذه الألفاظ يرجع فيها إلى العرف.

---

(1) الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في أكثر من موضع في صحيحه برقم ٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (٥٧/١) ٦٤.

(2) لسان العرب لابن منظور (١٩٠٩/٣) (٢١٩٤/٤)، وانظر : تاج العروس فصل السين من باب الباء (٢٩٣/١).

وقد جاء مصطلح السب في الكتاب والسنة باسم الأذى، وورد في بعض الأحاديث لفظ الشتم والسب وكذلك جاء ذكره عند الفقهاء والمحدثين وهو من الألفاظ المعروفة التي لا تحتاج إلى تعريف، كالأرض والشمس والليل والنهار، وكل ما كان كذلك فيرجع فيه إلى العرف، فما عده أهل العرف سبًا أو عيبًا أو نقصًا فهو سب.

وهنا يعطي شمولاً في التعريف وتوسعًا، فنحن مثلاً نعيش في عصر فيه من الأدوات والأجهزة والإمكانيات والاختراعات ما لم يكن في العصر السابق، فضلاً عن عصر النبوة ونزول الوحي، ومن الأمور المستحدثة في الصحافة والكتابة ما يعرف برسم الكاريكاتير وهو الذي يستخدمه الكفار في صحفهم وكتبهم يريدون بذلك الإساءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم – قاتلهم الله أنى يؤفكون–، من أجل ذلك فإن السباب لا ينحصر في ألفاظ معينة، بل ألفاظه تستجد، وربما يظهر أدوات وآلات ومعارف تستخدم في السبّ لم تكن ظهرت أو اخترعت من قبل.

قال ابن تيمية : وإذا لم يكن للسب حد معروف في اللغة ولا في الشرع، فالمرجع فيه إلى العرف، فما كان في العرف سبًا للنبي – عليه الصلاة والسلام – فهو الذي يجب أن ينزل عليه كلام الصحابة والعلماء، وما لا فلا[1].

أنواع السب

لقد حاول بعض العلماء أن يحصروا أنواع السب والفاظه، وقبل أن أذكر ذلك أنبّه إلى ما يأتي :-

١- أن التكلم في هذا الأمر شديد جدًا على النفس، ويشهد الله تعالى أننا نتحاشى ما استطعنا ذكر ذلك، ولو لا البيان والتوضيح لما ذكرناه، ولكن الضرورة الملحة هي التي تلجأ المسلم إلى ذلك، فالله المستعان.

٢- أن الرجل قد يكون كافرًا لكنه لا يسبّ، فليس الكفر مستلزمًا للسب بخلاف السبّ فإن من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم يكفر كما سيأتي في أقوال العلماء.

وبعد، فإن الكلام والفعل والإشارة والرسم واللمز والهمز الذي يقصد به العيب في الرسول – صلوات ربي وسلامه عليه – والانتقاص من ذاته

(1) انظر : الصارم المسلول لابن تيمية (صـ٥٤١).

وعرضه وشرفه وبدنه ونفسه ودينه فهو السب في عرف الناس في أي زمان ومكان، وهو الذي دل عليه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [1]

يقول القاضي عياض – رحمه الله – اعلم – وفقنا الله وإيّاك – أن جميع من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرّض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزدراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه أو العيب له فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب يقتل، كما نبينه ولا نستثنى فصلاً من فصول هذا الباب على هذا المقصد ولا نمتري فيه تصريحًا كان أو تلويحًا، وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه الشريف على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسُخف الكلام وهُجر ومنكر من القول وزور، أو عيّره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه، وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة – رضوان الله عليهم – إلى هلم جرًا[2].

وقال ابن تيمية – رحمه الله – : السب نوعان : دعاء وخبر.

النوع الأول : الدعاء، فمثلاً أن يقول القائل لغيره : لعنه الله أو قبّحه الله، أوأخزاه الله، أو لا رحمه الله، أو لا رضي الله عنه، أو قطع الله دابره، أو محا الله اسمه، ونحو ذلك من الدعاء، فهذا كله إذا صدر من مسلم أو معاهد أو غيرهما فهو سبّ، فأما المسلم فيقتل به بكل حال، وأما الذمي فيقتل بذلك إذا أظهره.

النوع الثاني : الخبر، فكل ماعده الناس شتمًا أو سبًا أو تنقصًا فهو السب[3] اهـ.

هذا وللمزيد من بيان ذلك أورد بعض الصور التي ذكرها العلماء وحكموا بالكفر على قائلها، لعل الأمر يتضح – وهو واضح جدًا – لأولئك الذين يجادلون عن الشاتمين، ويدافعون

(1) سورة الأنعام، آية (١٠٨)، وانظر : السيف المسلول لتقي الدين السبكي (ص٣٢٨).

(2) الشفا للقاضي عياض (١١٨/٢).

(3) الصارم المسلول لابن تيمية (صـ٥٣٩، ٥٤١).

عن المجرمين وليتهم يعقلون قول الله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [١].

أقول : ذكر الهيثمي في كتابه "الإعلام بقواطع الإسلام" صورًا لذلك منها : لو قال جوابًا لمن قال : (كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أكَلَ لَعِقَ أصَابِعَهُ)، فأجاب وقال : هذا غير أدب فإنه يكفر، وقد يوجه بأن هذا إنكار لسنة [لعق الأصابع ورغبه عنها] [٢].

وقول الحافظ الهيثمي وقد يوجه بأن هذا إنكار لسنة لعق الأصابع ورغبه عنها بيان منه وتفصيل إلى أن القائل إذا كان يتهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (هذا غير أدب) فإنه يكفر لشتمه للنبي

(١) سورة النساء، آية (١٠٩).

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام (صـ٢٣٨)، والحديث أخرجه أحمد (٣/٢٩٠، ٤٥٤)، ومسلم في الأشربة باب استحباب لعق الأصابع... (١١٥/٦) ٢٠٣٤، وأخرجه أبو داود في الأطعمة باب في اللقمة تسقط (٣/٣٦٥) ٣٨٤٥، والترمذي في الأطعمة باب ما جاء في اللقمة تسقط، وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح (٤/٢٢٨) ١٨٠٣.

صلى الله عليه وسلم، أما إن كان ينكر سنة لعق الأصابع فإنه لا يكفر لأنه لم ينكر معلومًا من الدين بالضرورة ولا شيئًا ورد ذكره في القرآن أو السنة المتواترة، فقد يكون لا يعرف تلك السنة فيعذره بذلك ويقول : وقد يوجه...إلخ.

ويؤيد هذا قوله في نفس الكتاب ونفس الموضع تقريبًا لكن في كلام آخر قال : (والذي يظهر أنه إن قال ذلك احتقارًا له صلى الله عليه وسلم واستهزاءً أو على جهة نسبة النقص إليه كفر، وإلاّ فلا، ويعزَّر التعزير الشديد) [٣].

ألا فليسمع البطالون الحاقدون الحاسدون الذين هم عن السابِّين الشاتمين يدافعون وللحقائق يزيفون دون ذرة من خجل أو قليل من حياء، وإنه لمن العجب العجاب أنهم يعدون ذلك لونًا من ألوان حرية التعبير، ولو كشف الغطاء عن قلوبهم المحجوبة لعلموا أنهم يسيئون إلى خير البشر وأشرف الخلق وأكرم الرسل، وإني أذكر قصة فيها معتبر لكل البشر

(٣) نفس المصدر (٢/٣٦١)، وانظر : معالم السنن للإمام الخطابي، فقد رد في شرح هذا الحديث على المترفين الذين ينكرون هذه السنة ردًا يكتب بماء الذهب (٤/٢٤٠).

وخاصة الحكام وأولي الأمر، الذين يفترض فيهم أنهم حماة الدين وحراس الشريعة فيضربوا بيد من حديد كل من تسوّل له نفسه الإساءة لسيد الخلق وحبيب الحق نبي الإسلام ورسول الملك العلام سبحانه وتعالى وصلى الله على النبي محمد وآله وأصحابه [١].

والقصة ذكرها الشيخ علي القاري في كتابه "شرح البدر الرشيد" فقال : حدث في مجلس الخليفة المأمون بحضرة أبي يوسف وقد حدَّث [بأنَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ يحبُّ القَرْعَ]، فقال رجل : أنا لا أحبّه، فأمر أبو يوسف بإحضار النّطع. والسيف فقال الرجل : أستغفر الله مما ذكرته ومن جميع ما يوجب الكفر،

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فتركه ولم يقتله [٢].

وبهذه القصة التي تبين أن الدين يحفظ ويحرس وأن النبي صلى الله عليه وسلم يعظم ويوقر.

(١) انظر كلمة الشيخ إبراهيم الفيوم، الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية في كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) للشيخ مصطفى العدوى (صـ ١٤٠ وما بعدها).

(٢) شرح البدر الرشيد (صـ ٩-١٠) نقلاً عن كتاب الاستهزاء بالدين (ص٤١٥).

المطلب الثاني

حكم من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم

سبّ النبي صلى الله عليه وسلم هو الكفر الأعظم وهو الذنب الأكبر وفاعله من أئمة الكفر، لأن سبّ النبي صلى الله عليه وسلم أمر زائد على الكفر، فالكفر يقع بالتكذيب والجحود بدون سب فكيف إن سبّ وشتم؟

وكان الكفار على عهد النبي صلى الله عليه وسلم صنفين : صنف لم يصدق ولم يؤمن فهذا كافر، وصنف لم يصدق ولم يؤمن ومع ذلك تطاول وسب وشتم فهذا الأخير كفره أكبر وجرمه أخطر.

وعندما ننظر في كلام أهل العلم عن الردة والمرتدين نجدهم يفرقون بين الساب وغيره من المرتدين فيقولون بتوبة غير الساب، بل منهم من يوجب استتابته كالإمام مالك ومنهم من يستحب له الاستتابة والإمهال كأبي حنيفة والشافعي ورواية عن الإمام أحمد، أما الساب فقد اختلفوا في قبول توبته أصلاً فضلاً عن توبته أو استتابته [٣].

(٣) انظر : الموسوعة الفقهية (٢٢/١٩١-١٩٢).

وقد قسم بعض العلماء المعاصرين[1] **إلى قسمين :-**

الأول : مرتد أعلن كفره وردته وأظهرها وجهر لكفره، لكنه لم يشتم ولم يسب، فهذا يقع تحت حكم المرتد.

الثاني : مرتد أعلن كفره وردته وأظهرها وجهر بها، لكنه لم يقف عند هذا الحد بل أعلن عداءه للإسلام وسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع في الصحابة شتمًا وتنقيصًا، فمثل هذا يقول العلماء عن ردته : إنها ردة مغلظة أى أنه ارتدّ ثم اعتدى على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

إجماع الأمة على تكفير ساب النبي صلى الله عليه وسلم وقتله

أجمعت الأمة على كفر وقتل من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت قبل قليل في مبحث تعريف السب كلام القاضي عياض وفيه : الحكم بكفر وقتل من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه، أو عرّض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له، فمن فعل ذلك فهو ساب والحكم فيه حكم الساب يقتل... ولا نمتري فيه تصريحًا أو تلويحًا... إلى أن قال : وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة – رضوان الله عليهم – إلى هلم جرًا...[2] اهـ

قال علي القاري – رحمه الله – وهو يشرح الشفا تعقيبًا على هذا الكلام[3]، هذا صونًا لقدره صلى الله عليه وسلم وتعظيمًا لأمره، ونعم ما قيل من المبنى في هذا المعنى :

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى *** حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ

قال الإمام السبكي في فتاويه : أما سبّ النبي صلى الله عليه وسلم فالإجماع منعقد على أنه كفر، والاستهزاء به كفر، قال تعالى : ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[4]

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : من حفظ شطر بيت مما هجى به النبـــي صلى الله عليه وسلم فهو

---

(١) احكام الردة والمرتدين (صـ٥٢-٥٣).

(٢) الشفا للقاضي عياض (٢/١٨٨)، وانظر : السيف المسلول لابن تيمية (ص٩٦).

(٣) شرح الشفا لعلي القاري (٢/٣٩٣).

(٤) سورة التوبة، آية (٦٩).

كفر، وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم ما هجى به النبي صلى الله عليه وسلم وكتابته وقراءته وتركه متى وجد دون محوه[1]. قال ابن المنذر : أجمع عوام أهل العلم على وجوب القتل على من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا قول مالك والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق ومن تبعهم[2]. وقال الخطابي – رحمه الله – ساب النبي صلى الله عليه وسلم مقتول، وذلك أن السب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارتداد عن الدين، ولا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله[3].

وقال القاضي عياض أيضًا[4] : أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[5]، وقال عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]

وقال محمد بن سحنون : أجمع العلماء على أن شاتم النبي صلى الله عليه وسلم المتنقص له كافر والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله وحكمه عند الأمة القتل، ومن شكّ في كفره وعذابه كفر[7] .اهـ

وقد حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حدّ من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم القتل، كما أنّ حدّ من سبّ غيره الجلدُ[8].

أقوال الفقهاء من أئمة المذاهب الأربعة في تكفير الساب وقتله

أقوال العلماء والفقهاء في تكفير ساب النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة جدًا، ولكن أختار من هذه الأقوال بعض أقوال علماء المذاهب الأربعة المعروفة وأبدأ بها مرتبة ترتيبًا زمنيًا.

---

(١) فتاوى السبكي (٢/٥٧٣).

(٢) الإقناع لابن المنذر (٢/٥٨٣-٥٨٤)، وانظر : تنبيه الولاة والحكام.

(٣) معالم السنن (٣/٢٥٥).

(٤) الشفا للقاضي عياض (٢/٢٨٦)، ، وانظر : السيف المسلول لابن تيمية (ص٩٦).

(٥) سورة الأحزاب، آية (٥٧).

(٦) سورة التوبة، آية (٦١).

(٧) الشفا للقاضي عياض (٢/١٩٠)، وانظر أيضًا : الزخيرة للقرافي (١٢/١٨).

(٨) انظر : أول مسألة من كتاب الصارم المسلول لابن تيمية (صـ٩).

أولاً : أقوال علماء الحنفية

قال الجصاص : قال أصحابنا :

فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه وكان مسلمًا فقد صار مرتدًا(١).

وقد وقفت على كلام شديد لبعض الحنفية يكفرون بمجرد التعريض بالنبي صلى الله عليه وسلم، ففي حاشية الدسوقي على الشرح الكبير : لو عُير إنسان بالفقر فقال لمن عيره به : تعيرني به والنبي قد رعى الغنم يكفر ما لم يقله تنقصًا وإلاّ قتل(٢).

وفي الفتاوى التاتارخانية : قال أصحابنا :

من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه وكان مسلمًا، فقد صار مرتدًا(٣).

قلت : هذا في المسلم، أما غير المسلم فإن أبا حنيفة وأتباعه قالوا لا يقتل لأن ما هو عليه من الشرك أعظم، لكن يؤدب ويعزر(٤).

وهذا القول يخالف قول عامة العلماء، قال الإمام مالك :

من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى قُتل إلاّ أن يُسلم، وكذا قال أحمد، وقال الشافعي : يُقتل الذمي إذا سبّ النبي صلى الله عليه وسلم وتبرأ منه الذمة، واحتج في ذلك بخبر كعب بن الأشرف(٥).

وقال القاضي عياض : واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾(٦)، ويستدل أيضًا عليه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم لابن الأشرف وأشباهه(٧)، ولأننا لم نعاهدهم ولم نعطهم الذمة على هذا ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم، فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضوا ذمتهم وصاروا كفارًا أهل حرب يُقتلون لكفرهم.

وأيضًا فإن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم من القطع في سرقة أموالهم

(١) مختصر اختلاف العلماء (٣/٥٠٤).

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤/٤٨٠-٤٨١).

(٣) الفتاوى التاتارخانية (٥/٤٧٧).

(٤) السيف المسلول لتقي الدين السبكي (ص١٨٥)، وانظر : تنبيه الولاة والحكام (ص١٠٤ وما بعدها).

(٥) المرجع السابق، وانظر : الكافي في فقه أهل المدينة (ص٥٨٥)، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص (٣/٥٠٥).

(٦) سورة التوبة، آية (١٣).

(٧) ستأتي هذه الأدلة كلها من القرآن والسنة في موضعها إن شاء الله.

والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حلالاً عندهم، فكذلك سبّهم للنبي صلى الله عليه وسلم يقتلون به(١).اهـ

ثانيًا : أقوال علماء المالكية

قال القاضي عياض : ومن رواية أبي المصعب وابن أبي أويس سمعنا مالكًا يقول : من سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلمًا كان أو كافرًا ولا يستتاب، وفي كتاب محمد : أخبرنا أصحاب مالك أنه قال :

من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب.

وقال عبد الله بن عبد الحكيم : من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم أو كافر قتل ولم يُستتب، وحكى الطبري مثله عن أشهب عن مالك.

وروي ابن وهب عن مالك : من قال إنّ رداء النبي صلى الله عليه وسلم ويُروى زرّ النبي صلى الله عليه وسلم وسخ أراد به عيبه قتل(٢).

وقال حافظ المغرب ابن عبد البر : ومن شتم الله تبارك وتعالى أو شتم رسوله صلى الله عليه وسلم أو شتم نبيًا من أنبياء الله صلوات الله عليهم قُتل إذا كان مظهرًا للإسلام بلا استتابة، ومنهم من يجعلها ردة يستتاب منها فإن تاب وإلاّ قتل، والأول تحصيل المذهب، وأما الذمي فيقتل إن سبّ الله أو سبّ رسوله إلاّ أن يسلم، وقد قيل : كل من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم قتل مسلمًا كان أو ذميًا على كل حال، وكلا القولين عن مالك ذكرهما ابن عبد الحكم وغيره(٣).اهـ

وقال ابن القاسم : من عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب، وميراثه لجميع المسلمين، وهو بمنزلة الزنديق لا تعرف توبته بلسانه، ويراجع ذلك في سريرته، وإن كان نصرانيًا فإنه يقتل صاغرًا(٤).اهـ

ثالثًا : أقوال علماء الشافعية

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - : ... من ذكر كتابَ الله أو محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو دين الله بما لا ينبغي، فقد نُقِضَ عهده وأحل دمه،

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) المصدر السابق (٢/١٩١).

(٣) الكافي في فقه أهل المدينة المالكي (ص٥٨٥).

(٤) انظر : مواهب الجليل من أدلة خليل (٤/٣٣٣).

وبرئت منه ذمة الله عز وجل وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم [(١)].

وقال الهيثمي : ومن الكفر تكذيب نبي أو نسبة تعمد كذب إليه أو محاربته أو سبّه أو الاستخفاف به [(٢)]. وقال أيضًا : ومنها لو قال جوابًا لمن قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه، فقال : هذا غير أدب فإنه يكفر [(٣)].

وفي مغني المحتاج : يكفر من كذب رسولاً أو نبيًا أو سبّه أو استخف به أو باسمه أو استخف بسنته، أو قيل له قلم أظافرك فإنه سنة فقال : لا أفعل وقصد الاستهزاء بذلك [(٤)].اهـ

وفي فتاوى السبكي قال : وينبغي على هذا البحث سب بعض الصحابة فإن سب الجميع لا شكّ أن كفر، وهكذا إذا سب واحدًا من الصحابة حيث هو صحابي لأن ذلك استخفاف بحق الصحبة، ففيه تعرض إلى النبي صلى الله عليه وسلم،فلا شكّ في كفر الساب .اهـ

قلت : الكلام في حكم سب الصحابي فيه تفصيل كثير ذكره العلماء في كتبهم، وفصله الإمام السبكي نفسه، لكنه هنا يكفر ساب الصحابي استهانة واستخفافًا بحق الصحبة ومن يفعل ذلك فإنه يعرض بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن عرض بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا شكّ في كفره كما قال : (فلا شكّ في كفر الساب) [(٥)].

رابعًا : أقوال علماء الحنابلة

قال عبد الله ابن الإمام أحمد :

سمعت أبي يقول : فيمن سبّ النبي صلى الله عليه وسلم تضرب عنقه [(٦)].

وروى حنبل عن الإمام أحمد أنه قال : كل من شتم النبي صلى الله عليه وسلم أو تنقصه مسلمًا كان أو كافرًا فعليه القتل [(٧)].

وقال مجد الدين ابن تيمية في باب حكم المرتد : فمن أشرك بالله أو جحد ربوبيته أو صفة من صفاته أو بعض كتبه أو رسله أو سبّ الله أو رسوله فقد كفر.. [(٨)].

---

(١) مختصر اختلاف العلماء للجصاص (٣/٥٠٥).

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام (صـ٢٠٥).

(٣) تقدم هذا القول قبل قليل في تعريف السبّ وأنواعه.

(٤) مغني المحتاج (٥/٤٢٩).

(٥) فتاوى السبكي (٢/٥٧٥).

(٦) مسائل الإمام أحمد براوية ابنه عبد الله (٣/١٢٩٢).

(٧) أحكام أهل الملل (ص٢٥٥-٢٥٦).

(٨) الإنصاف (١٠/٣٢٦).

وقال الخرقي : فيمن قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم قُتل [(١)].

وقال ابن مفلح : ويقتل زنديق وهو المنافق، ومن تكررت ردته أو كفر بسحره، أو سبّ الله أو رسوله، نقل حنبل : أو تنقيصه، وقيل : ولو تعريضًا [(٢)].

وقال ابن قدامة : ومن سبّ الله تعالى كفر، سواء كان مازحًا أو جادًا، وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته أو برسله أو كتبه قال الله تعالى : {ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم...} [(٣)]، وينبغي أن لا يُكتفى من الهازئ بذلك بمجرد الإسلام، حتى يؤدّب أدبًا يزجره عن ذلك، فإنه إذا لم يُكتفَ ممن سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوبة فمن سبّ الله تعالى أولى [(٤)].

الفصل الثالث

الأدلة على كفر الساب ووجوب قتله

المبحث الأول

الأدلــة مــن القرآن

الآيات الدالة على كفر شاتم الرسول ووجوب قتله كثيرة منها :

أولا : قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [(٥)]، وفي الآية تهديد ووعيد لمن آذى الله عز وجل بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو نقص – عياذًا بالله من ذلك – ويلاحظ أن الآية قرنت أذاه صلى الله عليه وسلم بأذى الله عز وجل، وقد جاء في الحديث، [اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي لا تَتخذُوهم غَرَضًا بَعْدي، فمنْ أحبَّهُم فبحُبّي أَحَبَّهم، ومن أبغضَهُم فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم، ومن آذاهُم فقد آذاني، ومنْ آذاني فقد آذى اللهَ عزَّ وجلَّ، ومن آذى اللهَ فيوشكُ أن يأخذَهُ] [(٦)].

---

(١) المرجع السابق (١٠/٢٨٨).

(٢) الفروع (٦/١٧٠).

(٣) سورة التوبة، الآيتان (٦٥-٦٦).

(٤) المغني (١٢/٢٩٨-٢٩٩).

(٥) سورة الأحزاب، آية (٥٧).

(٦) رواه عبد الله بن مغفل عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعًا أخرجه أحمد (٤/٨٧)،

وقد جعل الله عزّ وجلّ محبة رسوله محبة له وطاعة رسوله طاعة له وإرضاء رسوله إرضاء له فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [2]، وقال تعالى في أكثر من آية: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [3].

(٥٤/٥، ٥٧)، والترمذي في المناقب باب في فضل من بايع تحت الشجرة وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٦٥٣/٥) ٣٨٦٢. وهو كما قال الترمذي – رحمه الله – فمدار الحديث على عبد الرحمن بن زياد، وقيل عبد الرحمن بن عبد الله، وقيل غير ذلك. وقد تفرّد عنه عبيدة بن أبي رائطة، قال ابن معين: لا أعرفه. انظر: ميزان الاعتدال (٢٧٨/٣) ٤٨٦٧، وفيض القدير (١٢٩/٢) حديث رقم ١٤٤٢.

(١) سورة التوبة، آية (٢٤).

(٢) سورة الأنفال، آية (١).

(٣) سورة آل عمران، آية (١٣٢).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، فهذه الآيات إيجابية في استجابة المؤمنين لله وللرسول كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [4].

وهناك آيات تتحدث عن المنافقين والكافرين وهي على عكس الآيات المذكورة آنفًا ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [5]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [6]، وهذه الآيات وتلك تبين أنّ حقّ رسول الله في الاحترام كحق الله تعالى وأن من آذاه فقد آذى الله تعالى، لأنّ الناس لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلاّ بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك كان من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: [مَنْ أطاعَنِي فقدْ أطاعَ اللهَ ومَنْ عصَاني فقدْ عصَى اللهَ] [7].

---

(٤) سورة الأنفال، آية (٢٤).

(٥) سورة المجادلة، آية (٢٠).

(٦) سورة النساء، آية (١٤).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الجهاد باب يُقاتَل من وراء الإمام ويُتّقى به (١١٦/٦) ٢٩٥٧، ومسلم في الإمارة

والشاهد من آية سورة الأحزاب أنّ الله عز وجل ذكر فيها نوعين من العقوبة، عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة، أما عقوبة الله في الآخرة فهي أن الله عز وجل لعنهم وأعدّ لهم عذاب مهينًا، وأما عقوبتهم في الدنيا فهي أن الله لعنهم، ويلاحظ أن عقوبة الآخرة وهي العذاب المهين مترتبة على لعنهم في الآخرة، فماذا يترتب على لعنهم في الدنيا؟ والإجابة على ذلك تظهر في سياق الآيات بعد هذه الآية، فقد قال الله تعالى بعدها: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [1]، فظهرت عقوبات الدنيا التي هدد الله بها هؤلاء المنافقين المؤذين لله ورسوله والمؤمنين وهي كما ذكرها الآية:

١- إغراء الرسول صلى الله عليه وسلم بهم بأن يرصدهم ويراقبهم ولا يتهاون معهم، قال ابن عباس – رضي

باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٣/٦) ١٨٣٥.

(١) سورة الأحزاب، آية (٦١).

الله عنهما –: لنغرينك بهم يعني لنسلطنك عليهم، وقال قتادة: لنحرشنك بهم [2]، والمراد أن يأخذ صلى الله عليه وسلم على أيدي هؤلاء المجرمين المستهزئين ولا يتركهم يقولون ويفعلون ما يؤذون به الله ورسوله والمؤمنين. قال ابن جرير الطبري: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل [3].

٢- من العقوبات التي ذكرها الآية هي تهديد هؤلاء – إن استمروا على ماهم عليه من إيذاء – بطردهم من المدينة فلا ينبغي أن يكون في مجتمع المسلمين من يؤذي الله ورسوله والمؤمنين.

٣- أنهم في هذه المدة التي جاوروك فيها أو بعدها، أو هم في المدينة وخارجها ملعونين مطرودين من باب الله وبابك، وإذا أخرجوا لا ينفكون من المذلة ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون، ويظهر من هذه العقوبة الثالثة لهم في الدنيا أن القتل مترتب على اللعن، وقد جاء في الصحيحين عن ثابت بن الضحّاك أنّ

---

(٢) تفسير ابن كثير (٨٢٥/٣).

(٣) تفسير الطبري (٣٤/٢١)، وانظر القرطبي (٥٣٥/٧).

النبيَ صلى الله عليه وسلم قال : [وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْله](١).

الدليل الثاني : النهي عن رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾(٢)، وهذا أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبته، فلا يرفع المخاطب له صوته فوق صوته، ولا يجهر له بالقول بل يخفي الصوت ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم، وكان عمر – رضي الله عنه – لا يُسْمِعُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يَستفْهِمَهُ(٣)، وذهب الأدب بعمر – رضي الله عنه – أكثر من ذلك، فقد سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال : أتدريان أين أنتما؟ ثم قال ومن أين أنتما؟ قالا : من أهل الطائف، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا.

مراسم الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم

ولذلك قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيًا وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائمًا(٤).

والشاهد في الآية : هو أن الله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت نبيهم صلى الله عليه وسلم وعن الجهر له كجهر بعضهم لبعض، لأن هذا الرفع والجهر قد يفضي إلى حبوط العمل دون أن يشعر صاحبه.

وحبوط العمل يكون بالكفر وهو الحبوط الأكبر، بخلاف الحبوط الأصغر والفرق بينهما، أن حبوط العمل الأصغر يكون بوجود ما يفسده فإذا عمل الإنسان عملاً وجاء بناقضه فإن عمله هذا فقط قد حبط بمعنى أنه قد يصلي

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ما ينهى عن السباب اللعن (٤٦٤/١٠)، ومسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (٧٤/١) ١٧٦.

(٢) سورة الحجرات، آية (٢).

(٣) البخاري في تفسير باب {لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} (٥٩٠/٨) ٤٨٤٥.

(٤) تفسير ابن كثير (٣١٨/٤).

العبد ويصوم ويفعل الخيرات ثم تصدق بصدقة فأفسدها بمن أو أذى فإنه يحبط تلك الصدقة، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾(١).

وأما الحبوط الأكبر فلا يكون إلا بالكفر قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾(٢)، وقال تعالى : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(٣)، وقال عز وجل : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤)، وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(٥)، وكذلك هذه الآية التي معنا ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ يخشى منها أن يكفر فاعل ذلك وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك، وإذا كان رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول يوصل إلى حبوط العمل الذي يخاف منه أن يكفر صاحبه فكيف بالسب والاستهزاء المقصود والمتعمد، لا شك أنه يكون كفرًا(٦).

وأنا هنا أذكر حديثًا يدل على أدب الصحابة – رضي الله عنهم – مع نبيهم صلى الله عليه وسلم، وخوفهم من نزول العذاب بهم، مع أنهم لم يسيئوا الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم على أي حال لا سهوًا ولا عمدًا، غاية ما في الأمر أنَّ أحدهم كان جهوري الصوت – هكذا خلقه الله تعالى – فلما نزلت الآيات ظن أنها شملته وأن عمله حبط لأنه كان يرفع صوته عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج البخاري في التفسير عن موسى بن أنس عن أبيه – رضي الله عنه –

أن النبي صلى الله عليه وسلم افْتَقَدَ ثابتَ بنَ قيسٍ – رضي الله عنه – فقال رجل: يا رسولَ الله أنا أعلمُ لك عِلْمَهُ، فأتاه فوَجَده في بَيْتِه مُنَكِّسًا رأسَه فقال له: ما شأنُك؟ فقال : شرٌ كان يرفعُ صوتَه فوقَ صوتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقد حَبِطَ عَمَلُه فهو من أهلِ النارِ، فأتى الرجلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبَره أنه قال : كَذَا وكَذَا، فقال

(١) سورة البقرة، آية (٢٦٤).

(٢) سورة المائدة، آية (٥).

(٣) سورة الزمر، آية (٦٥).

(٤) سورة الأنعام، آية (٨٨).

(٥) سورة محمد، آية (٢٨).

(٦) انظر الصارم المسلول (ص٥٩).

موسى : فرَجَعَ إليه المرةَ الآخرةَ ببشارة عظيمة فقال : [اذهبْ إليه فقلْ له إنَّكَ لستَ من أهلِ النار ولكنَّكَ مِنْ أهلِ الجَنَّة](١). هذا الحديث يدل على خوف الصحابة — رضي الله عنهم — من غضب النبي صلى الله عليه وسلم فيغضب الله تعالى لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري.

الدليل الثالث وهو مكمل لما قبله :

وذلك في قول الله تعالى : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، وفي هذه الآية أمرهم الله أن يشرِّفوه ويعظموه ويبجلوه، كما جاء في الدليل السابق من أمره سبحانه وتعالى بعدم رفع الصوت فوق صوت النبي وعدم الجهر له بالقول، وسبب ذلك أنهم كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظامًا لنبيه صلى الله عليه وسلم بل الواجب أن يقولوا : يا نبي الله، يا رسول الله.

وقيل في الآية معنى آخر وهو : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا(٣)، قال قتادة : أمر الله المؤمنين أن يشرفوا رسول الله ويفخموه.

وكان المنافقون يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون فالله يعلمهم وسيجازيهم على ذلك، ولهذا توعدهم بقوله : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أى عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان.

وقد حكم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : [مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ](٤)، أى فليحذر

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب {لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ} (٥٩٠/٨) ٤٨٤٦.

(٢) سورة النور، آية (٦٣).

(٣) وهو قول ضعيف يأباه ظاهر القرآن، انظر : أضواء البيان للشنقيطي (٢٥٢/٦)، والقرطبي (٥٩٧/٦).

(٤) أخرجه البخاري في الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٣٠١/٥) ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٣٢/٥) ١٧١٨.

وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا أن تصيبهم فتنة أى في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى في الدنيا بقتل أو حدّ أو حبس أو نحو ذلك(١).

والشاهد من الآية أن الله عز وجل حذّر من يخالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم الفتنة والعذاب الأليم هذا لمجرد المخالفة، فكيف لو استخف بحق الآمر كما فعل إبليس، بل وكيف لو انتقصه وعابه وسبه؟

قال الإمام أحمد : نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعًا ثم جعل يتلو {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}، وجعل يكررها ويقول : وما الفتنة؟ الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(٢)

أقول : صدق الإمام أحمد — رحمه الله — فإن من معاني الفتنة الواردة في القرآن الكريم أنها تطلق على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة وذلك كقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(٣)، وفي الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(٤)، فقوله تعالى ﴿حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} لأن الدين لا يكون كله لله حتى لا يبقى شرك. قال القرطبي : الفتنة هنا القتل، وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول(٥).

وأعود فأنبه : كلّ هذه النتائج المخزية لمجرد مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف بمن شتمه أو سبه، ألا فليحذر كل من تسول له نفسه الخبيثة من أن يتعرض للرسول صلى الله عليه وسلم بسب أو شتم فإن مصيره الكفران و الخذلان.

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤٩١/٣).

(٢) سورة النساء، آية (٦٥).

(٣) سورة البقرة، آية (١٩٣).

(٤) سورة الأنفال، آية (٣٩).

(٥) أضواء البيان (٢٥٤/٦)، وانظر : القرطبي (٥٩٧/٦).

الدليل الرابع :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[1].

ومعنى هذه الآيات : أن من المنافقين من يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون هو أذن، يعني أنه يسمع من كل احد، وسنقول ما نريد فإذا بلغه عنا بعض ذلك جئنا نعتذر إليه فيقبل منا، إن المنافقين يجدون من النبي صلى الله عليه وسلم أدبًا جمًا في الاستماع إلى الناس في تواضع وحب، ويعاملهم بظاهرهم ويهش لهم ويفسح لهم من صدره، فيسمون هذا الخلق الرفيع بغير اسمه، ويصفون هذا الأدب البديع بغير صفته ويشتمون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون "هو أذن" يعني سَمّاع لكل قول، ينطلي عليه الكذب والزور، من حلَفَ له صدقه، ومن دس عليه قولاً قبله[2]، وقد رد الله عز وجل عليهم مبينًا أن النبي صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلاً وأتمهم إدراكًا وأثقبهم رأيًا وبصيرةً، فقال تعالى : {قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ}، أى يقبل من قال له خيرًا وصدقًا، قال سفيان بن عيينة : أذن خير يقبل منكم ما أظهرتم من القول والخير، ولا يؤاخذكم بما في قلوبكم ويدع سرائركم إلى الله تعالى.

أما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فذلك لسعة خلقه وامتثاله لأمر الله له في قوله تعالى : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾[3]، ثم بين الله عز وجل صفة النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يؤمن بالله ويصدقه في كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم، ويؤمن للمؤمنين فيطمئن إليهم ويثق بهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، دعوة

---

(1) سورة التوبة، آية (٦١-٦٣).

(2) انظر : مفاتيح الغيب للرازي (٧٥/٨).

(3) سورة التوبة، آية (٩٥).

لهؤلاء المنافقين إلى التوبة والإيمان الحق، فهو صلى الله عليه وسلم يأخذ بأيدي كل الناس إلى الخير.

الشاهد من الآيات السابقة :

إنّ الله عز وجل رتب على إيذاء المنافقين لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم {حَادُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، وجعل المحادة لله ورسوله نتيجة لإيذائهم وتنقصهم للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى المحادة أن يكون المحاد في حد وشق مبعد عن الله ورسوله وذلك كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]، وقوله عز وجل عن اليهود الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2]، فالمحادة والمشاقة هي المباينة بأن يبعد كل واحد منهما في حد وشق[3]، والمحادة لله ورسوله كفر، والدليل على ذلك :

١-أن الله عز وجل توعد من حاده ورسوله بأن له نار جهنم خالدًا فيها، وبيّن أنّ ذلك هو الخزي العظيم الذي لا خزي أشنع منه ولا أبشع.

٢-أن الله عز وجل حكم على من يوادّ المحادّ بأنه ليس بمؤمن، فكيف بالمحادّ نفسه، قال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[4] أى لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلاّ كان عاملاً بمقتضى ذلك الإيمان ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه.

٣-أن الله عز وجل حكم على المحادّين بأنهم في الأذلين فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[5] ومعنى ذلك أنهم كافرون لأنهم لو كانوا مؤمنين لما كانوا في الأذلين لأن الله تعالى قال : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(1) سورة الأنفال، آية (١٣).

(2) سورة الحشر، آية (٤).

(3) مفاتيح الغيب للرازي (٧٩/٨).

(4) سورة المجادلة، آية (٢٢).

(5) سورة المجادلة، آية (٢٠).

(6) سورة المنافقون، آية (٨).

الدليل الخامس:

قوله عز وجل: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافقون أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّه وَآيَاته وَرَسُوله كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1]، هذه الآيات من أصرح الأدلة وأوضحها على كفر الساب للرسول صلى الله عليه وسلم، فهي نص صريح في هذه المسألة لأن الله عز وجل حكم على المستهزء بالله أو آياته أو رسوله بالكفر، فمن سبه بطريق أولى، وفي سبب نزول هذه الآيات يقول ابن كثير – رحمه الله –: قال أبو معشر المديني عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنة وأجبنا عند اللقاء، فرُفِعَ ذلك إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فجاءَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسولَ الله إنَّمَا كنَّا نخوضُ ونلعبُ، فقال: ﴿أَبِاللَّه وَآيَاته وَرَسُوله كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى قوله ﴿مُجْرِمِينَ﴾[2].اهـ

وقد وردت في هذه القصة روايات يشهد بعضها لبعض ويقوي بعضها بعضًا، وقد قال مجاهد: قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا، وما يدريه ما الغيب فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وقال قتادة: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: أيظنّ هذا أن يفتحَ قصورَ الرومِ وحصونَها؟ فأطلع الله نبيه على ما قالوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [عليَّ هؤلاء النفر] فدعا هم فقال: أقلتم كذا وكذا؟ فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدًّا أوهزلاً وهو كيفما كان كفر، فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة، فإن التحقيق أخو الحصر والعلم والهزل أخو الباطل والجهل[3].

---

(1) سورة التوبة، آيات (٦٤-٦٦)، وانظر: الصارم المسلول (ص٢٧).

(2) تفسير ابن كثير، (٢/٣٦٧).

(3) أحكام القرآن (٢/٩٧٦-٩٧٧).

وقال الطبري ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم لا تعتذروا بالباطل فتقولوا: كنا نخوض ونلعب ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ يقول: قد جحدتم الحق بقولكم ما قلتم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يقول: بعد تصديقكم به وإقراركم به.اهـ[1]

وقال البغوي: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه أظهرتم الكفر بعد ما أظهرتم الإيمان.اهـ[2]

وقال ابن تيمية في تفسير الآية: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام[3].

وبعد هذه التفسيرات للآية نخلص إلى أن في الآيات دليلاً على أن من أسرّ سريرة يمكر فيها بدين الله ويستهزء به وبآياته ورسوله أن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه أنه كافر بالله العظيم.

---

(1) تفسير الطبري (٦/٤١٠).

(2) انظر تفسير الآية في البغوي.

(3) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٢٢٠).

المبحث الثاني

الأدلة من السنة على كفر شاتم الرسول ووجوب قتله

أولاً : عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – [أنّ يهوديةً كانتْ تشتمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وتقعُ فيه، فخنقَها رجلٌ حتى ماتت، فأبطلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دَمَها][1].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – [أنّ أعمى كانتْ له أمُّ ولدٍ تشتمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وتقعُ فيه فينهَاهَا فلا تَنتَهي، ويزجرُها فلا تَنْزَجر، قال : فلمّا كانتْ ذاتَ ليلةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم وتشتُمُهُ، فأخذَ المِغْوَلَ فوضَعَه في بطنها واتكأَ عليها فقَتَلَها... فلمّا أصبحَ ذُكِرَ ذلكَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجَمَعَ الناسَ فقال : [أنْشُدُ اللهَ رجلاً فعلَ ما فَعَلَ لي عليه حقٌّ إلاّ قامَ]، فقامَ الأعْمَى يتخطَّى الناسَ وهو يتَدَلْدَلُ حتى قَعَدَ بين يديَ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله : أنا صاحبُها، كانَتْ تَشتِمُكَ وتَقعُ فيكَ فأنْهَاهَا فلا تَنتَهِي وأزْجُرُها فلا تنزجر، ولي منها ابْنَان مثل اللّؤلؤتَين، وكانتْ بي رَفيقة فلمّا كانَت البارحةُ جعَلَتْ تَشتِمُكَ وتَقعُ فيكَ فأخذتُ المِغْوَلَ فوَضَعْتُهُ في بَطنِهَا واتكأْتُ عَلَيْهَا حتى قتلتها، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : [ألاَ اشْهَدُوا أنّ دَمَهَا هَدَرٌ][2].

ويظهر من هذين الحديثين أن القصة واحدة أو أن المعنى واحد وأنا أميل – والله أعلم – إلى أن المعنى واحد والقصة متعددة وذلك لأمرين[3] :

---

[1] الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الحدود باب الحكم فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم (١٢٩/٤) ٤٣٦٢، ومن طريق أبي داود أخرجه البيهقي (٢٠٠/٩)، وإسناد الحديث صحيح على شرط الشيخين، وهو من رواية الشعبي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه وقد ثبت سماعه منه كما جاء في صحيح البخاري، وللحديث شاهد من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – وهو الحديث الذي بعده.

[2] أخرجه أبو داود في الموضع السابق برقم (٤٣٦١)، والنسائي في كتاب تحريم الدم باب الحكم فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم (١٠٧/٧) وذكره الحافظ في بلوغ المرام وقال : رواه أبو داود ورواته ثقات.اهـ حديث رقم (١١٢٧).

[3] ذهب ابن تيمية إلى أن القصة واحدة فإنه استبعد أن تكون الأحداث المتطابقة من الحديثين في قصتين مختلفتين. انظر : الصارم المسلول (ص٧٣).

الأول : أنه لا مانع من تعدد الحادثة، حيث إنّ اليهود كانوا – ومازالوا – يحملون حقدًا وحسدًا للنبي صلى الله عليه وسلم لا يعلمه إلاّ الله، وقد أخبرنا ربنا عز وجل بشيء من حقدهم وحسدهم ودسائسهم، وأقوالهم وأفعالهم طافحة بذلك في القديم والحديث، هذا من طرف الساب الشاتم – قاتله الله – أما من الناحية الأخرى فإن أي مسلم – وإن لم يكن صحابيًا – فلن يصبر على سماع شتم النبي صلى الله عليه وسلم وسبه فكيف لو كان صحابيًا؟؟

الثاني : الاختلاف في كيفية القتل ففي حديث علي – رضي الله عنه – أنّ الرجل خنقها، وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه أخذ المِغوَل وهو بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الواو : شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه فيغطيه، وقيل : هو حديدة دقيقة لها حدٌّ ماضٍ، وقيل : هو سوط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه[1].

وأيًا ما كان الأمر فإن في الحديث من الفقه : أنه يقتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم ويهدر دمه، فإن كان مسلمًا كان سبه له صلى الله عليه وسلم ردة فيقتل، وإن كان من أهل العهد فإنه يقتل إن لم يسلم، وقد نقل ابن المنذر الاتفاق على أن من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم صريحًا وجب قتله[2].

وفي الحديث أيضًا : حب الصحابة – رضي الله عنهم – للنبي صلى الله عليهوسلم فإن هذا الرجل مع أنه أعمى البصر وليس البصيرة، إلاّ أن عماه لم يمنعه من الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن هذه المرأة وإن كانت له أم ولد أى غير مسلمة، إلاّ أنها كانت رفيقة به، وكان له منها ابنان جميلان مثل اللؤلؤتين، فلم يمنعه رفقها به عن الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن النصرة له، ولم يحجزه أن له منها ولدان مثل اللؤلؤتين، فالمسلم لا يهدأ له بال ونبيه صلى الله عليه وسلم يُسب ويُشتم حتى لو كان هذا الشاتم – قاتله الله – رفيقًا بذلك المسلم ولطيفًا معه في المعاملة والخدمة، والمؤمن لا يقر له قرار إذا تعرض أحد لسب نبيه صلى الله عليه وسلم، حتى وإن كانت أم ولديه اللؤلؤتين.

---

[1] النهاية في غريب الحديث (٣٥٦/٣).

[2] انظر : نيل الأوطار للشوكاني (٢١٤/٧).

وبالجملة فإن من يقع في النبي صلى الله عليه وسلم ويسبه فلا خير فيه أبدًا، حتى وإن كان يأتي منه للمسلمين نفع أو مال أو غير ذلك، أو حتى إن ترتب على قتله خسارة مادية أو غيرها، فهذا الصحابي الجليل قتل امرأة هي أم ولديه اللؤلؤتين التي كانت تخدمه وتقوم على شئونه وهو الضرير – رضي الله عنه – لكن كل ذلك لا يوزن أمام سبها للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يمنعه ضرره وعماه عن القيام بحق رسول الله.

وأخيرًا فإن هذا الرجل المؤمن كما ناشده النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم ليعترف قام وهو خائف مضطرب – في مشيه – وهو معنى قوله (يتدلدل) وذلك استجابة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم واعترافًا بحقه (لي عليه حق) يعني حق الطاعة والاستجابة، فلما اعترف وأقرّ هدر النبي صلى الله عليه وسلم دمها،

ولعله صلى الله عليه وسلم علم بالوحي صدق هذا الرجل.

قال الإمام الخطابي – رحمه الله – وفيه بيان أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم مقتول، وذلك أن السب منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارتداد عن الدين، ولا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله، ولكن إذا كان الساب ذميًا فقد اختلفوا فيه. فقال مالك بن أنس : من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى قتل إلاّ أن يسلم، وكذلك قال أحمد بن حنبل. وقال الشافعي : يقتل الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم وتبرأ ذمته، واحتج في ذلك بخبر كعب بن الأشرف[1].اهـ وخبر كعب بن الأشرف هو الدليل الثاني من أدلة السنة على أن ساب النبي صلى الله عليه وسلم يَكفر ويُقتل وهذا تفصيله.

ثانيًا : قتل كعب بن الأشرف

روى البخاري عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال : [قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : من لكَعْب بن الأشرف؟ فإنّه قدْ آذى الله ورسولَه، فقامَ محمدُ بنُ مَسْلَمَةَ فقالَ : يا رسولَ الله، أتحبُّ أنْ أقتلَه؟ قالَ : نعَم، قالَ : فأْذَنْ لي أن أقولَ شيئًا، قال : قلْ، فأتاه محمدُ بنُ مَسْلَمَةَ فقال : إنّ هذا الرجلَ قد سألَنا صدقةً وإنّه قد عنّانا[2]،

(1) انظر : معالم السنن (٢٩٦/٣).

(2) بالعين المهملة وتشديد النون الأولى من العناء وهو التعب. انظر الفتح (٣٣٨/٧).

وإني قد أتيْتُكَ أستَسلِفُكَ، قال : وأيضًا والله لتمُلّنَّه، قال : إنّا قدْ اتّبَعْنَاه، فلا نحبُّ أنْ ندَعَه حتى ننظرَ إلى أي شيءٍ يصيرُ شأنُه، وقد أردْنا أن تُسلفنا وَسْقًا أو وَسْقَين[1] فقال: نعم، ارْهَنوني، قالوا: أيُّ شيءٍ تُريدُ؟ قال : ارْهنوني نساءَكم، قالوا : كيف نرهنُك نساءَنا وأنتَ أجملُ العربِ؟ قال : فارْهَنوني أبناءَكم، قالوا : كيف نرهنُك أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال : رُهِنَ بوَسْقٍ أو وَسْقَين هذا عَارٌ علينا، ولكنّا نرهنُكَ الأمةَ، قال سفيانُ[2] : يعني السلاح، فواعدَه أن يأتيَه فجاءَه ليلاً ومعه أبو نائلة، – وهو أخو كَعْبٍ من الرضاعة – فدعاهم إلى الحِصْنِ، فنَزلَ إليهم فقالت له امرأتُه : أينَ تخرُجُ هذه الساعةَ؟ فقال : إنّما هو محمدُ بنُ مَسْلَمَةَ وأخي أبو نائلَة، وقال غيرُ عمرٍو قالتْ أسمعُ صوتًا كأنّه يقطُرُ منه الدمُ، قال : إنّما هو أخي محمدُ بنُ مسلمةَ ورضيعي أبو نائلَة، إنّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنة بليلٍ لأجابَ، قال : ويُدخل محمدُ بنُ مسلمةَ معه رجلان، قيل لسفيان : سَمّاهم عمرو؟ قال : سمّى بعضَهم، قال عمرو : جاء معه برجلين وقال غير عمرو : أبو عيسى بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر، قال عمرو :جاء معه برجلين فقال: إذا ما جاء فإنّي قائلٌ بشعْرِه فأشُمّه، فإذا رأيتُموني استَمْكَنْتُ من رأسه فدُونَكم فاضْربوه، وقال مرةً : ثم أُشِمُّكم، فنزل إليهم متوشحًا[3] وهو ينفحُ منه ريحُ الطيب فقال : ما رأيتُ كاليومِ ريحًا اى أطْيَبُ – وقال غير عمرو : قال عندي أعطرُ نساء العرب وأكملُ العرب، قال عمرو فقال : أتأذَنُ لي أنْ أشمَّ رأسَكَ؟ قال : نعم، فشمّهُ، ثم أشمّ أصحابَه ثم قال : أتأذنُ لي؟ قال : نعم، فلمّا استمْكَنَ منه قال : دونَكُمْ فقتلوه ثم أتوْا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبَرُوهُ][4].

والشاهد من الحديث أنّ كعب بن الأشرف لما سب النبي صلى الله عليه وسلم وهجاه ندب صلى الله عليه وسلم

(1) الوسق بالفتح ستون صاعًا والصاع أربعة أمداد بمد الرجل معتدل الكفين.

(2) سفيان هو ابن عيينة الراوي عن عمرو بن دينار.

(3) متوشحًا يعني بثوبه أو سلاحه. انظر : المعجم الوسيط (١٠٣٣/٢).

(4) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف (٣٣٦/٧) ٤٠٣٧، ومسلم في الجهاد والسير باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود (١٨٤/٥) ١٨٠١.

لقتله فقال : من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، وقد تقدم ذكر ذلك في الأدلة القرآنية، وواضح من قوله صلى الله عليه وسلم [آذى الله ورسوله] أنه يريد السب، ولذلك قال السهيلي : فيه من الفقه وجوب قتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان ذا عهد خلافًا لأبي حنيفة – رحمه الله – فإنه لا يرى قتل الذمي في مثل هذا[1]، وقد تعقبه الحافظ في الفتح فقال: وفي كلامه نظر وصنيع المصنف في الجهاد يعطي أن كعبًا كان محاربًا حيث ترجم لهذا الحديث (الفتك بأهل الحرب) وترجم له أيضًا (الكذب في الحرب)[2] وهذا الذي قاله الحافظ – رحمه الله – صحيح بالنظر إلى عاقبة كعب بن الأشرف فإنه صار محاربًا بإيذاءه الله ورسوله، وبإعلانه السب والهجاء للنبي صلى الله عليه وسلم، أما قبل ذلك فالمعروف من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما قدم المدينة وادع اليهود، وكان كعب بن الأشرف أحد اليهود من بني النضير، فلما نقض اليهود عهودهم ومواثيقهم حاربهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان نقض عهد كعب بن الأشرف أنه سب النبي صلى الله عليه وسلم وهجاه بالشعر،

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي مرّ آنفًا [مَنْ لكعبِ بنِ الأشرفِ فإنه آذى الله ورسولَه]، هذا ولم يقتصر كعب بن الأشرف على السب والإيذاء بل كان له طامات أخرى، منها أنه رثى بالشعر قتلى قريش في بدر، وذهب إلى مكة يحرض قريشًا على قتال النبي صلى الله عليه وسلم، وفضّل دينهم على دين النبي صلى الله عليه وسلم[3]، وكل ذلك هو دون سب النبي صلى الله عليه وسلم، فالأصل في قتله والعلة فيه – والله أعلم – هو سبه للنبي صلى الله عليه وسلم وهي نفس العلة التي قتل بها الغلامان أبا جهل يوم بدر وهو ما سأذكره في الدليل الثالث.

ثالثًا : أخرج البخاري ومسلم[4] – واللفظ له – عن عبد الرحمن بن

(١) الروض الأنف (٢٣١/٣)، وانظر : السيف المسلول (ص٢٠ وما بعدها).

(٢) فتح الباري (٣٤٠/٧)، وانظر : شرح السنة للبغوي (٤٥/١١).

(٣) الروض الأنف (٢٣٠/٣ وما بعدها، وانظر : السيف المسلول (ص٢٤٨).

(٤) البخاري في المغازي باب فضل من شهد بدرًا (٣٠٨/٧) من الفتح برقم (٣٩٨٨)، ومسلم في

عوف – رضي الله عنه – أنه قال : [بينما أنا واقفٌ في الصف يومَ بدرٍ نظرتُ عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصارِ حديثةٌ أسنانُهما، تمنيتُ لو كنتُ بين أضلعَ[1] منهما، فغمزني أحدُهما فقال :يا عمِّ هلْ تعرفُ أبا جهلٍ؟ قال : قلتُ : نعم، وما حاجتُكَ إليه يا ابن أخي؟ قال : أُخبِرْتُ أنه يَسبُّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيدِه لَئِنْ رأيتُه لا يُفارقُ سَوادي سوادَه حتى يموتَ الأعجَلُ منّا[2]، قال : فتعجّبْتُ لذلك، فغمزني الآخرُ فقالَ مثلَها، قال : فلمْ أنْشَبْ أن نظرتُ إلى أبي جهلٍ يزولُ[3] في الناسِ فقلت : ألاَ تريان، هذا صاحبُكُما الذي تَسألان عنه، قال : فابْتَدَراهُ فضَرَباهُ بسَيْفَيْهِمَا حتى قتَلاهُ، ثم انصَرَفا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأخبَراه فقال : أيُّكُمَا قَتَلَه؟ فقال كلُّ واحد منهُمَا : أنَا قتَلْتُهُ، فقال : هلْ مسَحتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟ قالاَ : لاَ، فنظر في السيفين، فقال : كلاَكُمَا قتَلَه] الحديث.

قال الإمام النووي في الحديث : الغضب لله ورسوله يعني غضب هذين الغلامين لله ورسوله، حيث أراد كل واحد منهما أن يقتل أبا جهل مهما كلفه ذلك حتى لو كلفه حياته [لا يُفارقُ سَوادي سوادَه حتى يموتَ الأعجَلُ منّا] وقد ذكر كل واحد منهما أنه يريد قتل أبي جهل بسبب أنه سمع أن أبا جهل يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانَ سبّ فرعون هذه الأمة للنبي صلى الله عليه وسلم يعد من أجرم جرائمه وأكبر آثامه – وكله آثام – ولا يقل قائل : إن هذه عاطفة جياشة من غلامين نحو نبيهما!! لا يصلح فعلهما

كتاب الجهاد باب استحقاق القاتل السلب (١٤٨/٥) ١٧٥٢.

(١) أضلع أي أقوى، وتفسرها رواية البخاري (فكأني لم آمن بمكانهما) بمعنى خشي أن يؤتى الناس من ناحيته لكونه بين غلامين حديثين.

(٢) سوادي سواده بفتح السين فيهما يعني لا يفارق شخصي شخصه، وعبر عن الشخص بالسواد لأنه يُرى سوادًا من بعيد. انظر : النهاية في غريب الحديث (٣٧٦/٢)، وقوله (حتى يموت الأعجل منا) معناه الأقرب أجلاً، وفي البخاري قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه.

(٣) قوله (فلم أنشب) يعني لم ألبث (وأبي جهل يزول) يعني يضطرب ويتنقل في المواضع، والزوال القلق، وفي رواية البخاري (يجول) بالجيم. انظر : شرح النووي على مسلم (٦٢/١١).

للاستدلال فإن هذا فهم مرجوح، وذلك لأمرين :

الأمر الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم علم بأمرهما ورأى دماء أبي جهل على سيفيهما وأقرهما بالفعل (فنظر في سيفيهما) كما أقرهما بالقول وبشرهما أنهما قد اشتركا في قتل أبي جهل (كلاكما قتله).

الأمر الثاني : وإذا قُدِّر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم بحال هذين الغلامين فإن رب الرسول صلى الله عليه وسلم قد علم وهو سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا كان الله قد علم ولم ينزل على نبيه إنكارًا لهذا العمل دل ذلك على جوازه لأن الله عز وجل لا يقر عباده على شيء غير مشروع، فتم الاستدلال حينئذ على كل تقدير.

وأخيرًا فإن تشبيه الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف لهما بالصقرين تشبيه بليغ، فإن الصقر مشهور بالشجاعة والشهامة والإقدام على فريسته[1] وكذلك هذان الغلامان انطلقا كالسهمين سرعةً، وكالصقرين شجاعةً وإقدامًا، وفي لفظ البخاري [فَشَدَّا عليه مثلَ الصقْرين] كما أن الصقر مشهور بأنه إذا تشبث بشيء لم يفارقه حتى يأخذه، ومثله في ذلك هذان الصقران فلم يتركا أبا جهل إلا صريعًا مقتولاً غير مأسوف عليه.

رابعًا : روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بَرْزَةَ الأسلَمي – رضي الله عنه – قال : [أغلَظَ رجلٌ لأبي بكرٍ الصدِّيقِ، قال : فقالَ أبو بَرْزَةَ : ألاَ أضرِبُ عُنُقَه؟ فانتَهَرَهُ، وقال : ما هي لأحد بعدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم][2].

ورواه بأطول من ذلك فقال : [كنّا عند أبي بكرٍ الصديقِ في عَمَلِه، فغضبَ على رجلٍ من المسلمين فاشتدَّ غضبُه عليه جدًا، فلمّا رأيتُ ذلك قلت :يا خليفةَ رسولِ الله أضربُ عنقَه؟ فلما ذكرتُ القتلَ صرفَ عن ذلك الحديث أجمعَ إلى غيرِ ذلك من النحو، فلمّا تفرَّقْنا أرسل إليّ بعدَ ذلكَ أبو بكرٍ الصديقِ فقال : يا أبا بَرْزَةَ ما قلتَ؟ قال : ونسيتُ الذي قلتُ، قلتُ : ذكِّرْنيه، قالَ : أما تَذْكُرُ ما قلتَ؟ قال : قلتُ : لا والله، قالَ : أرأيتَ حينَ رأيتني

(1) انظر : الفتح (٧/٣٠٨).

(2) مسند أحمد (٨٩/١) ٥٤.

غضبْتُ على الرجل فقلتَ : أضربُ عُنُقَهُ يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أما تذكرُ ذاكَ؟ أو كنتَ فاعلاً ذاكَ؟ قال : قلتُ : نعم والله، والآنَ إنْ أمَرْتني فعلتُ، قال : وَيْحكَ! أو وَيْلَكَ، إنَّ تلك والله ما هي لأحد بعدَ محمد صلى الله عليه وسلم][1].

وقد رواه أبو داود أيضًا، وقال بعد أن رواه : قال أحمد بن حنبل : أي لم يكن لأبي بكر أن يقتل رجلاً إلا بإحدى الثلاث التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كفرٌ بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتلُ نفسٍ بغير نفس، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقتلَ.

والإمام أحمد – رحمه الله – يشير هنا إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم [لا يَحلُّ دَمُ امرئٍ مسلمٍ إلاَّ بإحْدَى ثَلاثَ...][2] الحديثَ. وقولُ الإمام أحمد : كان للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل لأنه لا يأمر إلاّ بما أمر الله به، ولا يأمر بمعصية قط، ولذلك فقد أمر الله عز وجل بطاعته صلى الله عليه وسلم بل جعل طاعته من طاعة الله تعالى فقال : {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}[3].

وفي الحديث دليل على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم فحكمه القتل، لأن هذا الرجل لما أغلظ القول لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه – همّ أبو برزة رضي الله عنه بقتله واستأذن أبا بكر في ذلك فقال : (ليس هذا لأحدٍ بعدَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم) يعني القتل بسبب السب، ولذلك فإن المحدثين – رحمهم الله – لما أخرجوا هذا الحديث في كتبهم ذكروه في الحدود وتحريم الدماء، باب الحكم فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم وفي حاشية السندي على النسائي[4] قال : قوله

(1) المسند برقم (٦١) وأخرجه أيضًا الطيالسي (ص٣) والحميدي رقم (٦) وأبو داود في ا الحدود باب الحكم فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم (١٢٩/٤) ٤٣٦٣، والنسائي في تحريم الدم باب الحكم فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم (١٠٨/٧، ١٠٩) وهو حديث صحيح.

(2) أخرجه البخاري في الديات باب قول الله تعالى {أنَّ النَّفسَ بالنَّفسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ...} الآية (٢٠١/١٢) برقم ٦٨٧٨، ومسلم في القسامة باب مايباح به دم المسلم (١٠٦/٥) برقم ١٦٧٦.

(3) سورة النساء، آية (٨٠) وانظر : معالم السنن (٢٥٥/٢).

(4) سنن النسائي الصغرى (١٠٩/٧) والسندي هو محمد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن نور الدين السندي عالم بالحديث والتفسير والعربية، أصله من السند ومولده فيها وتوطن بالمدينة إلى

(ليس هذا) أي القتل للسب وقلة الأدب!! كذا قال، وقد صدق رحمه الله، فسب النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أنه كفر فهو سوء أدب مع نبي، قال الله عزّ وجلّ في حقه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}(١). قال الإمام السبكي: فهذا الكلام من أبي بكر – رضي الله عنه – يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم له أن يقتل من تغيظ عليه بخلاف غيره من البشر، ولا شك أن سبه يغيظه(٢).

ان توفي، له حاشية على مسند أحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه وغير ذلك، توفي سنة ١١٣٨هـ. انظر: الأعلام للزركلي (١٣٢/٧).

(١) سورة القلم، آية (٤).

(٢) السيف المسلول لتقي الدين السبكي (ص٩٨).

مطلب

هل يجوز حكاية سبة النبي صلى الله عليه وسلم

يجب أن يكون الكلام في هذا الموضوع بحذر شديد ولغرض شرعي سديد، لأنه مزلة أقدام ومضلة أفهام وتدخل فيه سخرية اللئام. ولهذا فحكاية (سبّ الرسول صلى الله عليه وسلم) ونقل هذا السب يكون على أحوال:-

الحال الأول:

أن يكون الناقل لهذا السب والذاكر له يريد بذلك الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والذب عن عرضه الشريف؛ وهذا غرض نبيل عظيم حثّ عليه القرآن وجاءت به مقاصد الشريعة وهو يتفق كذلك مع قواعد الإسلام وأصوله.

والدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والذب عن عرضه الشريف هو مهمة العلماء والدعاة، وهي مهمة ثقيلة وأمانة جليلة ينبغي ألاّ يُستهان بها ولا يُفرط فيها، ويشترك مع العلماء والدعاة كل المسلمين بداية من ولي أمرهم حتى أصغر مسلم على وجه الأرض، وذلك لعظم حق النبي صلى الله عليه وسلم على كل مسلم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ينبغي لمن تصدى للدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتجنب ذكر ألفاظ السباب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن اضطر إلى ذكر شيء من السباب فلا حرج ما دامت النية صحيحة، والله يعلم المفسد من المصلح.

وأذكر أنني كنت أكتب في رسالتي للدكتوراه "البينة في ضوء السنة" أشياء من رحمة الحيوان في الإسلام، فكنت أتحرج أن أقول: لقد رحم النبي صلى الله عليه وسلم الحيوان، وكنت أحاول صياغة العبارة بحيث لا أجمع الحيوان مع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمًا لمقام النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيرًا.

ولقد وقفت على فتوى للحافظ ابن حجر حيث سئل عن بعض الوعاظ يذكرون في محافلهم ومجالسهم شيئًا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يظهر من السامعين لها حزن ورقة فيبقى صلى الله عليه وسلم في حيز من يُرحم لا في حيز من يُعظَّم، وذلك كقولهم: أنّ حليمة أخذته لترضعه شفقة عليه، لأن المراضع كلهنّ رفضنه لقلة المال وعدم وجود والده، وكذلك ما يذكرون من رعيه للغنم صلى الله عليه وسلم وكثير من هذا المعنى المخل بالتعظيم.

فأجاب بما نصه: ينبغي لمن يكون فطنًا أن يحذف من الخبر ما يوهم في المُخبَر عنه نقصًا، ولا يضره ذلك بل يجب. اهـ.

قال الإمام السيوطي بعد ذكره للفتوى: هذا جوابه بحروفه(١).

وقال القاضي عياض –رحمه الله–: فهذا مما ينبغي امتثاله ويحمد فاعله، وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقض على قائله والفتيا بما يلزمه وهذا مما يجب، ثم أراد أن يدلل على قوله فقال: وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسله في كتابه على وجه الإنكار لقولهم والتحذير من كفرهم والوعيد عليه والرد عليه... وقد أجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكاية مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهها عليهم(٢).

(١) تنزيه الأنبياء (ص ٣٣-٣٤).

(٢) الشفا (٥/٢).

قلت : وعلى هذا تتنزل القاعدة : ناقل الكفر ليس بكافر.

الحال الثاني : أن يكون الحاكي للسبّ والشتم، حكاه مرة وليس ذلك من عاداته، ولا هو يستحسن ذلك ولا يعده حقًا وصوابًا، ،إنما حكاه من باب الحكاية فقط، ثم إن الكلام المحكي لم يكن من البشاعة والفظاعة التي يتردد المسلم ألف مرة في ذكرها.

فإن ذلك يُزجر ويُنهى عن العودة إليه، وإن قوّم ببعض الأدب فلا حرج في ذلك، وإذا كان السبّ المنقول والشتم المحكي فيه قباحة شديدة، وألفاظ شنيعة كان الأدب له أشدّ، وأصحاب هذا القسم وسط بين حالين، الحال الأول ما ذكرناه، والحال الثالث وهو الآتي.

الحال الثالث : أن يحكي السب وينقل الشتم وهو فرح مسرور يظهر على وجهه الأغبر علامات الشماتة والسعادة — لا أسعده الله — أو هو يتعود على نقل السباب والشتائم ويحرص على جمعها وذكرها وحكاياتها دون تحفظ وصيانة بل باستخفاف ومهانة، فهذا حكمه حكم الساب نفسه.

قال القاضي عياض : يؤاخذ بقوله ولا تنفعه نسبته إلى غيره فيُبادر بقتله ويعجل إلى الهاوية أمه[1]. وقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام : من حفظ شطر بيت مما هجي به النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر[2].

قلت : يكفر إن رضي بذلك واستحسنه وفرح به، لا أن يقصد به غير ذلك، وقد نقل الحافظ ابن حجر عن السهيلي قوله في ذلك : فإن الذي يروي ذلك على سبيل الحكاية لا يكفر، وهذا هو الجواب عن صنيع ابن إسحاق في إيراده بعض أشعار الكفرة في هجو المسلمين[3].

المذاكرة والمدارسة بين العلماء وطلبة العلم

هناك حال أخرى خارجة عن الأحوال السابقة من حكاية السب، وهي مذاكرة طلبة العلم مع مشايخهم لبعض ما يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم أو يُختلف في جوازه عليه أو ما

---

(1) المصدر نفسه (٢/٢١٦).

(2) انظر : تنزيه الأنبياء (ص ١٨) وهو في الشفا أيضًا.

(3) المرجع السابق، وانظر أيضًا : فتح الباري (١٠/٥٤٩).

يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه.

فهذا الأمر لا يدخل في حكاية السب، وهو بالحال الأولى من حكاية السب أشبه وهي حكاية السب لأجل الدفاع والذب.

ويجب التنبه إلى أن الكلام في هذا الأمر مع أهل العلم والطلبة النابهين ممن يفهم المقاصد ويحقق الفوائد ويُجنب ذلك من عساه لا يفقه أو يخشى به فتنة.

ومما يذكر في ذلك ما أورده ابن السبكي عن الإمام الشافعي حيث قال : قال الشافعي — رضي الله عنه — في بعض نصوصه : وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لها شرف، فَكُلّم فيها فقال :[لو سَرقتْ فلانةٌ — لامرأةٍ شريفة — لقطعتُ يدَها]، قال ابن السُبكي : فانظر قوله فلانة، ولم يبح باسم فاطمة تأدّبًا معها — رضي الله عنها — أن يذكرها في هذا المعرض، وإن كان أبوها صلى الله عليه وسلم قد ذكرها لأن ذلك منه صلى الله عليه وسلم حسن دال على أن الخَلْق عنده في الشرع سواء[1] .اهـ

قال الحافظ السيوطي بعد ذكره للقصة : فهذا من صنع الشافعي، ثم من تقرير السبكي أصل في هذه المسألة، فقوله (تأدّبًا) يدل على أن ضده خلاف الأدب، وقوله (لأن ذلك منه صلى الله عليه وسلم حسن) يدل على أنه من غيره قبيح، هذا مع كون الشافعي — رحمه الله — إنما ساق الحديث مساق الاحتجاج على المسائل الشرعية، ومساق تقرير العلم في التصنيف[2].

ومن لواحق بيان ما ذكر أقول : يجب التنبه لأمرين :-

الأول : أن ما ذكره الإمام الشافعي — رحمه الله — إنما يكون في شرح السنة وفقه الحديث واستنباط العلماء، أما في رواية الحديث فالأصل أن يروي الحديث بلفظه[3].

الثاني : أنه ينبغي أن يتحفظ العلماء وطلبة العلم عند مدارستهم ومذاكرتهم (مثل تحفظ الإمام الشافعي لئلا يسبق لسان أحدهم فيقع في المحظور فهذا الإمام الحافظ أبو حاتم ابن حبان، قال : النبوة العلم والعمل فهُجر وحُكم

---

(1) الشفا للقاضي عياض (٢/٢١٧).

(2) تزيه الأنبياء للسيوطي (صـ٢٠، ٢١).

(3) انظر : التبصرة والتذكرة شرح الفية العراقي (٢/١٦٨)، وتدريب الراوي (٢/٩٨).

عليه بالزندقة وكُتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله، لكن المحققين من أهل العلم أنصفوه ووجهوا قوله واستفادوا من علمه، وممن حمل كلامه على المحمل الحسن الحافظ الذهبي – رحمه الله – حيث قال : وهذا أيضًا محمل حسن ... إذْ أكمل صفات النبي : العلم والعمل، ولا يكون أحدًا نبيًا إلاّ أن يكون عالمًا عاملاً ثم قال : ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن أبي حاتم : لا يسوغ، وذلك نَفَسٌ فلسفي[1].اهـ

قلت : ولبعض العماء زلات وهفوات، بل كما قال المحققون من أهل العلم : قل إمام إلا وله زلة، فإذا تُرك لأجل زلته تُرك كثير من الأئمة وهذا لا ينبغي أن يُفعل[2].

فالحاصل أن ذكر شيء من ذلك المذكور في أول الكلام ينبغي أن يكون بروية فإنه مزلق خطير.

لكنني أعجب من حال من سبقنا مقارنة بحالنا، فوالله إني لأشعر بالغربة الشديدة عندما أقرأ ما يفعله عامة المسلمين في العصور الأولى مع عالم زل بدون قصد فأشار إشارة خفية بشيء يسير جدًا إلى ما لا يليق بالنبي الحبيب – صلوات ربي وسلامه عليه – وأرى وأشاهد ما يفعله المسلمون في عصرنا مع جاهل فاسد يُنسب إلى الأمة أو كافر حاقد يسبّ النبي صلى الله عليه وسلم سبًّا صريحًا صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله.

ومن القصص الغريبة العجيبة في ذلك ما وقع من زلةِ لفقيه العراق وحافظهم وكيع بن الجراح – رحمه الله – فقد تورط فيها وزل زلة لم يرد منها إلاّ خيرًا، وذلك أنه روي بإسناد ضعيف أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فأكبَّ عليه فقبّله وقال : بأبي وأمي، ما أطيبَ حياتُك وميتُك. ثم قال الراوي : وكان تُرِكَ يومًا وليلةً حتى ربَا بطنُه وانثنت خنصرَاه. قال ابن خَشْرَم : فلما حدث وكيع بهذا بمكة اجتمعت قريش وأرادوا صلب وكيع، ونصبوا خشبة لصلبه، فجاء سفيان بن عيينة فقال لهم : الله الله!! هذا فقيه أهل العراق، وابن فقيهه، وهذا حديث معروف. قال سفيان : ولم أكن سمعته إلاّ أني أردت تخليص وكيع.

(1) انظر : تذكرة الحفاظ (٣/٩٢٢).

(2) راجع في ذلك كتاب تصنيف الناس (صـ٨٠ وما بعدها).

قال الحافظ الذهبي تعليقًا على هذه القصة بعد أن أوردها : فهذه زلة عالم، فما لوكيع ولرواية هذا الخبر المنكر المنقطع الإسناد؟! كادت نفسه أن تذهب غلطًا، والقائمون عليه معذورون بل مأجورون، فإنهم تخيلوا من أشاعة هذا الخبر المردود غضًا ما لمنصب النبوة...إلخ[1].اهـ

قلت : فتأمل قول الحافظ الذهبي : والقائمون عليه معذورون بل مأجورون...إلخ كلامه – رحمه الله – فإنه يبين أن ما قام به المسلمون في الرد على وكيع – وهو فقيه العراق والمحدث الجهبذ – هو الصواب لأنّ أي مقام يترل بجوار مقام النبي صلى الله عليه وسلم!

(1) سير أعلام النبلاء (٩/١٥٩-١٦٠).

مطلب
في توبة ساب النبي صلى الله عليه وسلم

اتفق الفقهاء على قبول التوبة من المرتد، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك، فمنهم من استحب استتابته وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي في قول، وأحمد في رواية عنه، وممن استحبّ استتابة المرتد الحسن البصري – رحمه الله – كما استحبوا له الإمهال إن طلب المرتد ذلك فيمهل ثلاثة أيام.

ومن العلماء من قال بوجوب استتابة المرتد وإمهاله ثلاثة أيام وهو الإمام مالك وهو مذهب الحنابلة، وعند الشافعي في أظهر الأقوال يجب الاستتابة وتكون في الحال فلا يمهل.

أما ساب النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال المالكية : من شتم نبيًا مجمعًا على نبوته بقرآن أو نحوه فإنه يقتل، ولا تقبل توبته، لأن كفره يشبه كفر الزنديق ويقتل حدًا لا كفرًا إن قتل بعد توبته لأن قتله حينئذ لأجل ازدرائه لا لأجل كفره[2].

وقد تقدم كلام ابن القاسم : من عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(2) الموسوعة الفقهية (٢٢/١٩٣).

قتل ولم يستتب وميراثه لجميع المسلمين، وهو بمنزلة الزنديق لا تعرف توبته بلسانه ويراجع ذلك في سريرته، وإن كان نصرانيًا فإنه يقتل صاغرًا[1].

وفي مذهب الإمام أحمد لا تقبل توبة ساب النبي صلى الله عليه وسلم، قال المرداوي: وهو المذهب (يعني مذهب الإمام أحمد) وقطع به القاضي في تعليقه والشيرازي في ساب الرسول صلى الله عليه وسلم والخرقي في قوله: من قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم قُتِل، وقال أصحابنا: لا تقبل توبة من سب النبي صلى الله عليه وسلم لأنه حق آدمي لا يعلم إسقاطه وأنها تقبل إن سب الله تعالى لأنه يَقْبَلُ التوبةَ في خالص حقه سبحانه وتعالى[2].

قلت: من المقرر عند أهل العلم أن التوبة إن كانت تتعلق بحق الله عز وجل فلها شروط ثلاثة وهي: ترك الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العود إليه، فإن كانت التوبة تتعلق بحق الآدمي فيضاف شرط رابع وهو أن يبرأ من حق صاحبه[3]، فهذا السب للنبي صلى الله عليه وسلم والطعن فيه محض حق له فلا يسقط بالتوبة لأن التوبة ستكون ناقصة حتى يرد الحق لصاحبه، ونحن لا ندري هل عفا الرسول صلى الله عليه وسلم عن حقه أو لم يعف؟ بخلاف من سب الله – عز وجل – فإنه حق الله عز وجل والله تعالى أخبرنا أنه يغفر الذنوب جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].

والخلاصة: أن مذهب السلف وجمهور العلماء فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقتل كفرًا وردة، فإن تاب قتل أيضًا حدًا، ولهذا لا تقبل عندهم توبته ولا تنفعه استتابته، قال القاضي عياض: وحكمه حكم الزنديق ومُسِرِّ الكفر في هذا القول، سواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا من قبل نفسه، لأنه حدٌّ واجب لا تسقطه التوبة كسائر الحدود.

---

(1) مواهب الجليل (٤/٣٣٣).

(2) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (١٠/٢٨٨).

(3) انظر: رياض الصالحين وشرحه دليل الفالحين (١/٧٩-٨٠).

(4) سورة الزمر، آية (٥٣).

هذا وقد قال بعض العلماء بقبول توبة الساب بالإسلام، ومن أشهرهم الإمام تقي الدين السبكي، فقد نصّ غير واحد من أئمة الشافعية: أن السبكي اختار أن الساب إذا كان مشهورًا قبل السب بفساد العقيدة، ودلت القرائن على سوء نيته وقصده أنه يقتل، بخلاف من دلّت القرائن على صدق سريرته وأن ذلك وقع منه فلته فتقبل توبته، ولا يقتل[1].

ثم استقر رأيه في كتابه ((السيف المسلول)) على قبول توبة الساب مطلقًا[2].

قلت: من ذلك يتضح أن الساب إذا تاب توبة حقيقية، وعلمنا صدق توبته، ورأيناه يعظّم النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ويدافع عن شرعه فإن توبته تقبل لأن الله عز وجل قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[3].

ولكن إذا قبلنا توبته فهل يَسقط عنه القتل، أو لا يَسقط؟

فجمهور العلماء يرى أن توبته تُقبل فيما بينه وبين الله عز وجلّ، لكن يجب علينا أن نقتله، يعني أن توبته لا ترفع القتل عنه لأن قتله حق للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو بتوبته بالإسلام مسلم يغسّل بعد قتله ويكفّن ويصلى عليه ويدفن مع المسلمين.

وقال بعض العلماء: إذا قبلنا توبته فلا يقتل لأنه بالسب ارتدّ وحلّ قتله، فإذا تاب من الردة ارتفع حكم الكفر وهو القتل فلا يُقتل.

وقد قال بعض العلماء: هذا حكم يرجع إلى رأي الإمام، فإن رأى من المصلحة أن يقتل قتله، حتى لا يجترئ الناس على جناب الرسول صلى الله عليه وسلم ولو رأى من المصلحة ألا يقتله، وأن يؤلفه على الإسلام ويؤلف أمثاله أيضًا فعل[4].

---

(1) صرح بذلك عنه ابنه تاج الدين عبد الوهاب السبكي ابن تقي الدين. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (١٠/٢٣٤) وكذلك ابن حجر الهيثمي في كتابه الإعلام بقواطع الإسلام (ص١١٥).

(2) لقد لخص ذلك الشيخ سليم الهلالي محقق كتاب "السيف المسلول" في (ص ٣٧).

(3) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٨/٢١٧) ٢٩٧٠.

(4) ذكر ذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه (الشرح الممتع) واستحسنه (١٤/٤٥٩).

قلت : وهذا الرأي الأخير لا أميل إليه ولا أستصوبه خاصةً في هذا الزمان حيث قلّ النصير وضعفت الأمة واستهان الأعداء بها فهبّ المسلمون يقولون — وقد سكت الأئمة — إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

توبة الساب الذمي

ما سبق من حكم توبة الساب وأنه يقتل كفرًا إن لم يتب أو حدًّا إن تاب، هذا في المسلم، أما الذمي إذا صرح بالسب فإن جمهور العلماء على أنه يقتل مالم يسلم، قال الإمام الخطابي : إذا كان الساب ذميًا فقد اختلفوا فيه، فقال مالك بن أنس : من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم، وكذلك قال أحمد بن حنبل، وقال الشافعي : يقتل الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم وتبرأ منه الذمة، واحتج في ذلك بخبر كعب بن الأشرف.

وحكى عن أبي حنيفة أنه قال : لا يقتل الذمي بشتم النبي صلى الله عليه وسلم ما هم عليه من الشرك أعظم[1].

وقال القاضي عياض : هذا حكم المسلم، فأما الذمي إذا صرح بسبه أو عرضه أو استخفّ بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به[2]، فلا خلاف عندنا في قتله إن لم يسلم، لأنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا، وهو قول عامة العلماء إلا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا : لا يقتل!! لأن ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يُؤدب ويُعزَّر، واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾[3].

ويستدل أيضًا عليه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم لابن الأشرف وأشباهه ولأنا لم نعادهم، ولم نعطهم الذمة على هذا، ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم، فإذا أتوْا ما لم يُعطَوْا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضوا ذمتهم، وصاروا كفارًا أهل حرب يقتلون لكفرهم، وأيضًا فإن

---

(1) معالم السنن (55/3)، وانظر : السيف المسلول (ص185).

(2) أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به معناه أن أهل الكتاب كفروا لعدم إيمانهم بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم فإذا قال أحدهم عنه صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بنبي، فهذا ليس بالسب الذي يُقتل به.

(3) سورة التوبة، آية (13).

ذمتهم لا تُسقط حدود الإسلام عنهم من القطع في سرقة أموالهم والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حلالاً عندهم، فكذلك سبهم للنبي صلى الله عليه وسلم يقتلون به.اهـ[1]

قلت : إذا كان مذهب الحنفية أن الذمي لا يقتل بالسب وإنما يُعزَّر ويُؤدَّب فإنهم يقولون بأن التعزير قد يصل إلى حدّ القتل، ومن أئمتهم من قال بقتل الذمي إذا سب النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن عابدين : وذكر شيخ الإسلام العلامة العيني : رواية في نقض عهده في الامتناع عن أداء الجزية، ونقل عن الشافعي : انتقاضه بالسب ثم قال : واختياري هذا، أى ما قاله الشافعي.

ونقل ابن عابدين ذلك عن الشيخ كما الدين بن الهمام، وقد ردّ كلامه العلامة القاسم في فتاواه : أنه لا يُعمل بأبحاث شيخه ابن الهمام المخالفة للمذهب، نعم نفس المؤمن تميل إلى مذهب المخالف في مسألة السب لكن اتباعنا للمذهب واجب.اهـ[2]

قلت : بل الواجب اتباع الكتاب والسنة خاصة عند الاختلاف والنزاع، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[3].

*****

---

(1) الشفا (229/2)، وانظر : السيف المسلول (ص185 وما بعدها).

(2) تنبيه الولاة والحكام (ص105-106).

(3) سورة النساء، آية (59).

الخاتمة

الحمد لله على ما تفضل وأنعم، وأعان وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

وبعد،،،

فقد انتهى هذا البحث الغني – أحسبه إن شاء الله – في هذا الموضوع المضني؛ لأن الكلام عن الشتم والسب، وإن كان للدفاع والذب إلا أنه مما يقلق المسلمين، ويؤرق المؤمنين، فإن نفس المؤمن لا تشتفي من هذا الساب اللعين الطاعن في سيد الأولين والآخرين، إلا بقتله وصلبه، بعد تعذيبه وضربه، فإن ذلك هو اللائق بحاله، الزاجر لأمثاله عن سيء أفعاله، وإني أوصي نفسي وإخواني وجميع أمة النبي صلى الله عليه وسلم بأمور :–

أولاً : وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته وتوقيره، فهذا أصل عظيم من أصول الدين، ولا يصح لمسلم ينتسب إلى الإسلام أن يعرّض بالنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التفكه والضحك والاستهزاء ولا على سبيل الرد والاعتراض.

ثانيا : كذلك على الأمة أن تحفظ حرمة النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه وفي آل بيته، وبقية أصحابه، وأزواجه أمهات المؤمنين، وفي سنته وهديه، وتقديم ذلك على الآراء والأهواء حتى تصبح الأمة كما كانت خير أمة أخرجت للناس.

ثالثا : أن كثرة التطاول على جناب النبي العالي صلى الله عليه وسلم يهدم قداسة هذا الدين وهيبته وعظمته في نفوس الكثيرين حتى من أبناء هذه الأمة، فينبغي الرد والدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم وبيان سيرته العطرة وشمائله الطيبة، وأن ينشر ذلك في جميع العالم ليعرف الناس كلهم من هو رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يسترنا في الدنيا والآخرة، وأن يدفع عني عذاب النار.

كما أسأله جل وعلا أن يجعل هذا العمل محل قبول للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يقبلني على حوضه فلا أطرد، وتحت لوائه فلا أبعد.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه،

والحمد لله رب العالمين.

المراجع

القرآن الكريم

١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن سليمان الفارسي المتوفى ٧٣٩هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢) أحكام الردة والمرتدين، د/ محمود مزروعة، ط. أولى، مطبعة الفنية بالقاهرة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٣) أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل لأبي بكر الخلال، ت ٣١١هـ، تحقيق سيد كسروي حسن، ط. أولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٤) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، المكتبة العصرية ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٥) أضواء البيان للشنقيطي، ط. أولى، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٦) إعجاز القرآن لابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، ط. دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأديب مصطفى صادق الرافعي، ط. أولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٨) الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر المكي الهيثمي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٩) الأعلام للزركلي، ط. ثامنة ١٩٨٩م، بيروت.

١٠) الإقناع لابن المنذر، ط.أولى، مطابع الفردوس، الرياض، ١٤٠٨هـ.

١١) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي، ط. أولى، ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م.

١٢) بداية السول في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم للعلامة العز بن عبد السلام، تحقيق الألباني، ط. أولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٣) بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني، مطبوع مع شرحه سبل السلام، تحقيق إبراهيم عصر، دار الحديث بدون رقم ولا تاريخ طبع.

١٤) تاج العروس للزبيدي، تحقيق علي بشيري، ط. ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، دار الفكر، بيروت.

١٥) التبصرة والتذكرة للحافظ العراقي ت ٨٠٦هـ، ط. دار الكتب العلمية.

١٦) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، تحقيق أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري، مكتبة أولاد الشيخ للتراث بدون الطبعة ولا تاريخها.

١٧) تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للحافظ المزي، تعليق عبد الصمد شرف الدين ، نشر الدار القيمة بهيوندي بمباي الهند، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

١٨) تدريب الراوي للحافظ السيوطي، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، ط. الثانية، ١٩٧٢م، المكتبة العلمية، بالمدينة المنورة.

١٩) تنبيه الولاة والحكام على أحكام شاتم خير الأنام صلى الله عليه وسلم، لابن عابدين، تحقيق أبي بلال العدني، ط. أولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، دار الآثار، القاهرة.

٢٠) تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء، للحافظ جلال الدين السيوطي، ط. أولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار الاستقامة، القاهرة.

٢١) تهذيب سيرة ابن هشام تهذيب شيخ المحققين، عبد سلام هارون، ط. ٢٠٠٦م، دار الطلائع، القاهرة.

٢٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، ط. أولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، للإمام البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، ط. أولى.

٢٤) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ طبع.

٢٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق جماعة من المحققين، ط. دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٦) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، تصحيح الشيخ طه يوسف شاهين من علماء الأزهر، ط. دار الطباعة المحمدية، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، القاهرة.

٢٧) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، لمحمد بن علان الصديقي، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ طبع.

٢٨) الذخيرة للقرافي، تحقيق محمد بو خبزة ، دار العرب الإسلامي، ١٩٩٤م.

٢٩) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للإمام السهيلي، تعليق مجدي بن منصور، ط. أولى، دار المكتب العلمية.

٣٠)رياض الصالحين للإمام النووي، تحقيق الألباني، ط. ثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، المكتب الإسلامي.

٣١) سنن ابن ماجة، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الحديث، القاهرة.

٣٢) سنن أبي داود للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني، ط. المكتبة العصرية، بيروت.

٣٣) سنن الدارمي للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤) السنن الكبرى، للبيهقي، تحقيق محمد بعد القادر عطا، ط. أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥) سنن النسائي (المجتبى) بشرح الحافظ السيوطي، ط. دار الحديث، القاهرة.

٣٦) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الحادية عشرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٧) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية، تحقيق عصام فارسي الحرستاني، ط. أولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٨)صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي.

٣٩)صحيح البخاري، ط. ١٣٧٨هـ، مطابع الشعب، مصر.

٤٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ط. دار إحياء التراث العربي.

٤١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ط. ثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مكتبة مصر.

٤٢) محمد صلى الله عليه وسلم أعظم عظماء العالم للشيخ أحمد ديدات ومعه الفصل الأول من كتاب مايكل

هارت "العظماء مائة أولهم محمد صلى الله عليه وسلم" ترجمة علي الجوهري، ط. مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥م.

٤٣) مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله، تحقيق ودراسة د. علي بن سليمان المهنا، مكتبة الدار، ط.أولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، المدينة المنورة.

٤٤) مسند أبي داود الطيالسي، ط دار المعرفة، بيروت بدون.

٤٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٦) مسند الحميدي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط عالم الكتب، بيروت بدون.

٤٧) مسند عبيد حميد (المنتخب) ط عالم الكتب بيروت بدون.

٤٨) معالم السنن للخطابي، ط الثالثة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٩) معجم المناهي اللفظية، بكر بن عبد الله أبو زيد، ط ثالثة ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، دار العاصمة، الرياض.

٥٠) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، ط ثانية.

٥١) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار للحافظ العراقي، مطبوع بحاشية إحياء علوم الدين.

٥٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار الغد، القاهرة، ط أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٥٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط ثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، طباعة ذات السلاسل.

٥٤) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت.

٥٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إعداد مجموعة من العلماء، ط الرابعة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م، دار الوسيلة جدة، المملكة العربية السعودية.

٥٦) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تخريج أبو عبد الرحمن بن صلاح بن محمد بن عويضة، ط أولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٥٧) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار للشوكاني، الطبعة الأخيرة، مصطفى الحلبي.

*****

فهرس الموضوعات

*****